٣ / عوامل الصراع العثماني – الايراني:

يعد عهد بايزيد الثاني فترة انتعشت خلالها الآمال الاوروبية واستتباب السلام النسبي بعد حروب التوسع والسيطرة التي جرت على عهد محمد الثاني الفاتح. ١٤٥١- ١٤٨١م، وضم الاخير للبوسنة والهرسك (صربيا)، والبانيا، وجنوبي اليونان، وبعض تخوم كرمانيا في شمالي البحر الاسود.

كان سليم، الابن الاصغر لبايزيد الثاني حاكما على اقليم طرابزون، وقد اعتلى عرش الدولة سنة ١٥١٢م/٩١٨هـ بعد أبيه الذي حكم لاكثر من ثلاثين سنة. وقد ظهر جلياً ان الدولة كانت بحاجة الى رجل قوي يحكمها. ولكن عهداً من العلاقات السلمية والدبلوماسية قد بدأ مع عهد سليم الأول متمثلة بإقامة السفارات في اسطنبول وادرنه بول لكل من ڤينا وهنغاريا وروسيا. فشغل سليم عن مواجهة اوروبا وارسال الحملات عليها، بالالتفات الى الجبهة الشرقية، وبدء عمليات الصراع المسلح ضد ايران الصفوية، اثر المواقف الملتهبة تحت الرماد بين الطرفين ... وبدت مجريات أمور ما قبل اشتعال فتيل الحرب، داعية لقلق جميع الاطراف والفئات السكانية في مختلف الاماكن..

يعد عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢ - ١٥٢٠م هو البداية الحقيقية لنمو الصراع العثماني الايراني سياسياً وعقائدياً واقتصادياً وحربياً، وهناك عوامل عدة افضت الى بلورة ذلك الصراع، منها

١- **العامل السلطوي:** الذي تجسد بتنازع أسري بين العائلتين الحاكمتين (العثمانية/ الصفوية)، اذ كانت حماية البيت الصفوي لعشرات المنهزمين من أفراد البيت العثماني الحاكم وكانوا قد فرّوا من ظروف الإبادة التي تعرضوا لها في بدء حكم سليم الأول.. فكان ذلك بمثابة عامل مباشر في انفجار الازمة التي كانت قد نضجت بتأثير نوازع ومسببات أخرى

٢- **العامل الطائفي:** لقد كان لانفجار الحركة الطائفية الصفوية التي اشعلها الشاه اسماعيل في بث مذهبه عنوة، وتوسعاته السياسية من اجل تثبيت غاياتها، اثارة واضحة ليس فقط للحفيظة الدينية العثمانية، بل كان ذلك عاملا فعالا في تغيير الاستراتيجية السياسية للعثمانيين، وتوجيه انظارهم نحو آسيا الغربية (المشرق العربي)، بعد ان كانت أوروبا الشرقية شغلهم الشاغل، وبذلك بدأ

أولى حلقات النزاع المزمن بين العثمانيين والصفويين. ويرى المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي: ان هذا النزاع ادى الى ظهور عالمين متنافرين في تاريخ المنطقة*.

تنتسب الحركة الصفوية الى الشيخ صفي الدين ١٢٥٢- ١٣٣٤م، الذي عاش في اردبيل، وكان من المتصوفة الغريبي الاطوار. وعند اواسط القرن الخامس عشر، انتقلت تلك الحالة الصوفية الى نزعة طائفية مؤثرة في المجتمع التركماني، شمال غربي ايران. وكان الصفويون قد خدمتهم ظروف سياسية وانثربولوجية معينة، باستغلالهم الآلاف من الرعاة المتجولين، وساندتهم سياسة اوزون حسن، ذلك الحاكم التركماني لدويلة (الاق قوينلو = الخروف الابيض) في شرقي الاناضول، والذي حكم للفترة ١٤٥٣-١٤٧٨م.

وتشكلت على ايدي الصفويين نواة قوى القزلباش، أي: اصحاب العمائم الحمراء والتي ميّزتهم عن غيرهم في مجتمعهم، وكشعار خاص ميزهم عن غيرهم من المجتمعات المجاورة ... وكان جلّهم من الغلاة التركمان، وبرزت الدولة الصفوية، بعد قضائها على القوى الاقليمية المجاورة. فغدت دولة قوية متزعمة للحركة الطائفية** التي وجدت الشعوب الايرانية المتنوعة فيها تحولا يملأ فراغها التاريخي وامتداداتها الجغرافية الواسعة!

هكذا، غدا الشاه اسماعيل الصفوي بعد ذلك ماردا مقدسا، وبدأ ينهض بمشروعه التوسعي على حساب الاراضي والاقاليم الاستراتيجية العثمانية في شرقي الاناضول. وعليه، فمن وجهة نظر المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي. فان الشاه اسماعيل يتحمل وحده مسؤولية الانقسام التاريخي.

٣- **العامل السياسي:** ان للخلاف التركي - الفارسي، أسبقيات سياسية في تاريخ المنطقة، تخبرنا به طبيعة العلاقات الثنائية الساخنة بين الطرفين على مدى

---

* C.F.A.J.Toynbee, Astudy of History, Vol. I, Oxford, 1934, pp 385 6.

** انظر التفاصيل في

Sir P. Sykes, A History of Persia vol. II, London, 1930.

احقاب عدة، وقد وصلت ذروة ذلك الخلاف السياسي في عهد الشاه اسماعيل الصفوي الذي شكلت طموحاته السياسية في بناء «امبراطورية» شاسعة الاطراف على غرار الدولة العثمانية في مكتسباتها القوية، سبباً أساسيا في تفجير المواقف، فضلاً عن ان الشاه بدأ يستغل الصراعات العثمانية الاوروبية لصالح علاقاته السلبية مع العثمانيين.

وقد قرر اسماعيل الصفوي مدّ النفوذ السياسي الايراني الى الاراضي العثمانية الممتدة في شرقي الاناضول لتوسيع رقعة دولته غرباً، وبدأ العثمانيون يفسّرون ذلك بأنه تهديد سياسي فعّال، فضلاً عن مجموعة التهديدات العقائدية والاقتصادية التي تواجههم، فأخذوا بالعمل للتحدي والمواجهة الحربية، خاصة وان المناطق الشاسعة من املاكهم الشرقية كانت معرضة للخطر، لا سيما بعد الامتدادات الصفوية في الاراضي العراقية. ففي شتاء عامي ١٥٠٨- ١٥٠٩م، استولى الشاه اسماعيل على عربستان والعراق.. ولم تنفع مناشدة السلطان بايزيد الثاني للشاه اسماعيل التوقف عن اجراءاته السياسية والعسكرية.. وقد أوعز السلطان العثماني لكل من مماليك مصر وتركمان اوزبكستان فيما وراء النهر... ولم تنفع ايضاً المقاومة الاقليمية- المملوكية لحاكم حلب امام نشاطات التسلل الصفوي، ولا كذلك هجمات تركمان الاوزبك الشاغلة لحركات الصفويين الفعالة القوية ولكن؟

بقيت التحركات الصفوية - السياسية نشيطة في الاوساط التركمانية - الاناضولية، اذ كان باستطاعة احد الصفويين واسمه شاه كولو استغلال سخط تلك الاوساط للقيام بثورة كبرى في انطاكيا سنة ١٥١١م (أي قبل مجيء سليم الأول للحكم بأشهر) وارسال دعاته الى قلب الاناضول، مستغلاً الانقسامات السلطوية في البيت العثماني الحاكم؟ والنزاع العائلي الذي نشب بين ابناء بايزيد الثاني، فكانت النتيجة ان وقع معظم وسط وجنوب شرقي الاناضول بيد شاه كولو، مما دعا السلطان بايزيد الى ارسال جيش انكشاري قوامه ٨٠٠٠ مقاتل، هزم الصفويين، فقتل شاه كولو وانهارت بذلك قوته وحركته السياسية، وفرّت بقايا القزلباش الى ايران الصفوية.

لقد كان ذلك الاحتدام الأول بين الصفويين والعثمانيين مبعثاً لتولي سليم الأول العرش، اذ ناصرته القوى الانكشارية، فارغم بايزيد الثاني على التنازل بعد ان لمع دور ولده الاصغر سليم الذي كان قد قاد عمليات ناجحة ضد الصفويين.. ناهيك عن خططه المركزية والاستراتيجية، ودعمه الكبير للانكشارية، وتجديده للسلطة العثمانية، ومراكز القوى السياسية العثمانية، بالتخلص من اخوته، وتأمين حياة الدولة من خلال توجهه للتعامل مع القوى السياسية الكبرى في شرق الامبراطورية، وتأمين جبهاتها الغربية بعقد الاتفاقيات الدبلوماسية مع البندقية (=فينيسيا) وهنغاريا على نحو خاص.

اما الدور السياسي للمماليك كأكبر قوة في المنطقة العربية المجاورة للعثمانيين والصفويين ، فكان يتمثل بالتحول من دور المراقبة الى الانزعاج لما انطوت عليه التحركات الصفوية ليس ضد العثمانيين حسب، بل لأنها كانت موجهة ايضاً ضد ممتلكاتهم في بلاد الشام والحجاز، فعقدوا حلفاً سياسياً رسمياً مع العثمانيين ضد اسماعيل الصفوي عام ١٥١٣م، أي بعد عدة اشهر من تولي سليم الاول السلطة*.

هكذا تبلورت الاوضاع السياسية جميعاً ضمن هذا العامل الخطير، لكي يبدأ السلطان سليم الاول عمليات الصراع العثماني ضد ايران الصفوية.

٤- العامل الاقتصادي: على الرغم من ان بذور الصراع بين الطرفين قد نمت قبل عهد السلطان سليم الاول ١٥١٢م - ١٥٢٠م، فان فترة حكمه شهدت عدة تجديدات في البيروقراطية العثمانية، والحرف والاعمال التقنية السائدة في الدولة عصر ذاك وتطورها، على النحو الذي جعل الدولة تكثر من مطاليبها. فالحصار التجاري الذي فرضته الدولة العثمانية على اعدائها كان فعالاً في استعمالاته للاسلحة في الحرب التي خاضتها ضد الدولة الصفوية، وهذا ما كان يهدف اليه السلطان سليم في ان يحول دون ان ينال الايرانيون عدة الحرب المتضمنة النحاس والحديد، وكذلك من خلال منع تجارة الحرير التي استهدفت تخفيض مدخولات الشاه ومطاليبه، إذ كانت احدى اقوى مصادر ايراداته ، فلقد كانت ايران تعتمد تجارة الحرير في صادراتها الى الغرب الذي يقوم بمقابلتها

---

* انظر د. محمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني ط١، بيروت ١٩٨٢، ص ٧٨، ٧٩.

بالذهب والنحاس كايرادات رئيسة في استراتيجيته الدولية وقتذاك. وقد أثّر الحصار التجاري هذا قليلاً منذ ان شغل التجار في بداية الامر عن مسالكهم عبر حلب- الاسكندرونة في حين رصدت مواضع ديار بكر والموصل ومسالكهما التي كانت تحظى بالخطوط الاستراتيجيته الفعالة المهمة ... وهذا ما تم بعد ذلك من الاستحواذ والتحكم في السيطرة على مسالك اخرى فضلا عن خط البصرة ← بغداد ← الموصل الذي يقطع عمق وادي الرافدين نحو البحر (الخليج العربي الذي يعد الباب الطبيعي الجنوبي للمسلك العمودي) ... في حين كانت حلب هي النهاية الرئيسية للمسلك الافقي تبريز ← ارضروم، وقد استمرت فعاليتها حتى القرن الثامن عشر.

اما الموصل فقد بقيت مستمرة في علاقاتها الاقتصادية بمختلف الاقاليم، ومحتفظة بنافذتها المفتوحة نحو الشرق والغرب، وذلك لتحكمها بالمسالك الافقية والعمودية حتى فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، حين تحولت عنها التجارة الدولية، وكاد ينعدم مسلكها الافقي، فتأخرت اقتصادياتها، في حين يقوم مسلكها العمودي نحو بغداد حتى يومنا هذا في وقفاته وتخطيطاته.

لقد أثر الحصار التجاري على حركة التجار الذين تحولوا جنوبا في تكتيكاتهم التجارية الا انهم لم ينالوا حريتهم، فعلى سبيل المثال: قام أهل البلقان بابعاد تجار الحرير من الايرانيين من مدينة بورصة، من جهة اخرى استطاع سليم الاول أن يصادر البضائع الايرانية من جميع التجار الدوليين الذين ارسلهم الى الجانب الاوروبي من امبراطوريته (= روميليا). هذا ولا يمكننا ان نتغافل ونحن نبحث في المسببات الاقتصادية تمتع المدن والحواضر الساحلية على شريط البحر المتوسط، وهي مدن عربية لها اهميتها وفعالياتها في تجارة التوابل ابتداء من الاسكندرونة في الشام حتى الاسكندرية في مصر، وذلك قبل اكمال مشروع السيطرة العثمانية عليها، اذ كان تعامل تلك المدن والموانئ العربية تجارياً تعاملاً كبيراً مع أوروبا وخاصة مع الموانئ الايطالية*.

---

* التفاصيل في . د. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث...سبق ذكره، ص ٣٣٣-٣٣٤.

٤ / معركة چالديران: بداية الصراع البرّي:

في مستهل عام ١٥١٤م، بدأ سليم الأول مساعيه في قتال الشاه الصفوي، بعد تجهيزه لجيش جرار وأسلحة نارية، ومضى بذلك الجيش نحو الشرق، فزحف نحو مقاطعات. أزنيق وآق شهر وقونية وقيسارية حتى أرضروم، وفي ٢٢ آب / اغسطس ١٥١٤م، وعند موقع اسمه جالديران، شمال شرق بحيرة وان، اندلعت الحرب بين الطرفين، ثم تشتت الصفويون، وانهزم الشاه اسماعيل من المعركة، وحقق سليم بقواته الانكشارية انتصاراً كبيراً، وقتل الآلاف من القزلباش.

زحف سليم نحو العاصمة تبريز، فدخلها مظفراً مبتهجاً بالنصر في ساعات قلائل، ولم يفلح في البقاء فيها، إذ لقي معارضة من امراء جيشه الذين كانوا سبباً في منعه من التقدم والزحف في أعماق الاراضي الايرانية. كان جيشه يمرّ بظروف صعبة، اذ واجه نقصاً في المواد الغذائية، فغدا متعباً، ثم تفشّى فيه المرض، وكان قد خسر بعض قواده في معركة جالديران.. فرجع سليم دون ان يعقد صلحاً مع الشاه الصفوي ساحباً جيوشه التي انهكها الجوع والمرض وقساوة برد الشتاء، وقد فقدت الآلاف من مقاتليها... اذ اختار سليم التوسع على حساب ارمينيا، كما وبدأ يصفي علاقاته مع امارة ذو القدر أو الامارة القادرية.

كان من نتائج معركة جالديران ان اثيرت مخاوف المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وسوريا، وعلى الرغم من كسر شوكة الصفويين، فان كيان ايران الصفوي والمتالف من اقاليم وشعوب عدة بقي بعيداً عن الامتدادات العثمانية مقارنة بما جرى بعد ذلك بسنوات قليلة في الوطن العربي.

٥ / السلطان سليم والامتداد نحو إقليم الجزيرة الفراتية:

كان السلطان سليم الأول مرغماً على أن يجلو عن ايران، ويبدأ بضمّ أرمينيا وجورجيا وكوردستان وبلاد الجزيرة... وبعد ان حقق نجاحات بالغة في السيطرة وصل مدينة أماسية وعسكر فيها، وستصبح هذه المدينة محطة للتحركات العسكرية ضدّ الصفويين... وكان العراقيون في حالة استياء شديد ضد الصفويين، ولكن جيوشه لم تمتد نحوهم ... وفي أماسية، انتدب السلطان سليم الأول مستشاره الشيخ ادريس البدليسي مرات عدة للعمل على اثارة الامراء

الاكراد ورؤساء العشائر وحكام المقاطعات.. على حكم الشاه الصفوي ومهاجمة حامياته القوية، فبدأ البدليسي في أعماله، ونجح في مهامه تلك، وقد ساعدته في ذلك، الولاية الدينية التي كان يحمل لواءها، فضلاً عن الاساليب الدوبلوماسية التي اتبعها مع اقطاب المجتمع. أما سكان تلك المناطق من بلاد الجزيرة وكردستان، فقد كانوا ينتظرون جميعاً الخلاص من الحكم الصفوي.

بدأت المدن المهمة في تلك المناطق تثور الواحدة تلو الاخرى، اذ ثار أهالي ديار بكر وطردوا نائب بلدتهم، وهذا ما حدث ايضا في مدينة تبليس وقلاع حصن كيفا وسعرت فضلاً عن أقاليم أرزن وكرزان وساسون وبالو.. واستردت قلاع اكيل وعتاق وميافارقين، وانتفضت جزيرة ابن عمر وطورد الفرس الى اصقاع بعيدة، وامتدت آثار تلك الحركات التطهيرية حتى مدينتي كركوك وأربيل، وبدأ أمير السوران يثير القلاقل.

ومن ناحية أخرى، لم ينس السلطان سليم ذلك الموقف الذي اتخذه علاء الدين ذو القدر حاكم الامارة القادرية، فوجّه حملة نحو كليكيا، فنجح الجيش العثماني بالقضاء عليهم، وملك العثمانيون مرعش وبستين وعين تاب وملاطية، فانقرضت تلك الامارة التي وقفت حجر عثرة أما العثمانيين في تعاملها مع الفرس الصفويين تارة ومع المماليك في بلاد الشام تارة أخرى، فضلاً عن تحالفاتها الغربية.

يتضح لنا أن العمليات العثمانية قد نجحت اثر انتصار جالديران في كسر الطوق الصفوي ، وإثارة السكان من خلال الشيخ البدليسي الذي اضطلع بدور بارز في اثارة مشاعرهم، في حين لم يتدخل جيش سليم في أية عملية حربية باستثناء قضائهم على القادريين.. وأحسّ سليم انه قد نجح في تأمين تلك التخوم المستعصية والفاصلة بين الاناضول والوطن العربي. وفتح سكان المدن الثائرة الابواب للسلطان العثماني، في حين استعصت بعض المدن والقلاع نظراً لفعالية الحاميات الايرانية فيها.

١- الاسترداد الايراني وعمليات حربية أخرى:-

بدأ الصفويون يستعيدون قواهم العسكرية، وينظمون جيشهم، وبدأوا إرتداداً مثيراً متمثلاً بحملات عسكرية منظمة على مراكز السيطرة العثمانية وحاميتها على محور أذربيجان - تبريز وعلى محور كردستان - بلاد الجزيرة

الذي تساقطت فيه المدن والقلاع تباعاً اثر جهود البدليسي. لقد جرّد الشاه اسماعيل عدّة حملات ضد سليم، كان من بينها حملة وجهها الى ديار بكر بقيادة «قرة خان» شقيق حاكمها السابق الذي قتل في جالديران، فحوصرت المدينة حصاراً شديداً، فدافع أهلها دفاعاً منقطع النظير، واستنجدوا بالسلطان العثماني الذي كان من أماسيه، فأرسل لهم قوة عسكرية وصلت وشقّت صفوف المحاصرين لديار بكر بمهارة ودخلت قلعتها.. هذا فضلاً عن الحشد الذي جمعه البدليسي من قوات بتليس وكيزران ومكس وساسون، واستطاع ان يباغت فعلاً القوات الايرانية التي كانت في طريقها لنجدة قرة خان في منطقة تدعى أرجيش.

دام حصار ديار بكر سنة ونيفا، مات خلاله حوالي ١٥ ألفاً من السكان، وفي الوقت نفسه، دخل سكان آمد في طاعة السلطان سليم عندما قضوا على الصفويين، فنصّب عليهم محمد بيك بيقللي الآمدي (الباشا فيما بعد) ومنذ وصوله آمد بدأ عمله المشترك مع البدليسي، وكان البيقللي أو بيكلر بكى عثماني لديار بكر. وغدت المنطقة المنحصرة بين خربوت وآمد تحت الهيمنة العثمانية التي وقفت على رأسها او ستة غة أوغلو... ووقف على رأس الجميع فرهاد باشا القائد العام للجيش العثماني ضد الصفويين.

التقى البدليسي بالبيقللي في حصن كيفا للعمل على فك حصار ديار بكر، وكانت القوات المشتركة قد بدأت بالزحف نحوها، فتخلّى قره خان عن محاصرتها. ثم تمّ الزحف نحو ماردين التي سقطت بسهولة إثر مفاضات مع أهاليها، ولكن حاميتها الايرانية تحصنت بقلعتها المنيعة، فأرسل سليم الأول قوة عسكرية أخرى بقيادة خسرو باشا فالتحمت بقوات البدليسي والبيقللي في ربيع سنة ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ.

عزّز الايرانيون مواقعهم الجنوبية لامتداد يصل حتى سنجار، وظهر أن القوة العثمانية المتحالفة تحاصر الصفويين من أجل المواجهة الحقيقية بين الطرفين.. في حين كان المماليك في مصر والشام يترقبون الاحداث الاقليمية. أما السلطان سليم فكان ينتظر نتائج تلك المواجهة كي يبدأ بفصل جديد في حياته السياسية ليس باتجاه الفرس الصفويين هذه المرّة، بل باتجاه مماليك القاهرة.

٢- معركة قرة غين دده* الفاصلة ونتائجها:-

انضمت التشكيلات العسكرية للقواد الثلاثة خسرو باشا وبيقللي باشا والشيخ البدليسي، وتوحدت فصائلهم، فكان جيشاً عثمانياً أثمرت عملياته عن نتائج مهمة في حسم الموقف الاقليمي لصالح سليم ، وفي بداية الأمر أرسلت قوة مؤلفة من ٤٠٠٠ مقاتل، فالتقت الاعداء، ودارت معركة ضروس لم يسلم فيها من الجند العثماني الا ألف رجعوا منهزمين أمام الايرانيين. وربما أراد العثمانيون إختبار قوة الصفويين. وبدأ فصل المواجهة بين القوات العثمانية وجيش الصفويين في تلك الاقاليم بقيادة قره خان، وعلى مقربة من قوج حصار الواقعة بين اورفة ونصيبين من شهر مايس ١٥١٦م.

كان الجيش العثماني يتألف من قوة خسرو باشا على الميمنة، وقوات البدليسي على الميسرة، وقوات البيقللي في القلب، فدارت رحى معركة عنيفة غاية في الضراوة وهي الثانية في مواجهة قره خان الذي اصيب برصاصة أردته صريعاً، فوهنت قواته، وتفككت عدته، وانهزم جنوده شرّ هزيمة وقد أسميت هذه المعركة بمعركة «قره غين دده» نسبة إلى مكانها الواقع في جنوبي ماردين.

قادت هذه المعركة إلى نتائج مهمة، وأفضت بوجه خاص إلى سيطرة العثمانيين على إقليم بلاد الجزيرة وشمال غرب العراق قاطبة بجميع مدنها وقلاعها وأراضيها، وقد إستعصت قلعة ماردين فقط بعد أن خضعت مدينتها، إذ أبى سليمان خان- وهو أخو قره خان- أن يسلّمها، فدام الحصار العثماني لها سنة كاملة، وكان السلطان سليم قد افتتح حلب آنذاك، فأرسل بقوة كبيرة أسقطت القلعة بعد معركة طاحنة مزّقت الايرانيين.

لقد توالى خضوع المدن والقلاع بعد معركة قره غين دده الاستراتيجية، إذ سقطت كل من: أرجاني، وسيفرك، وباريسيك، وحصن كيفا وميافارقين، وسعرت، وديار بكر. ونصيبين، والموصل، وحصن سوران، وأورفه وكركوك

---

* تذكرها المصادر الاوروبية القديمة والحديثة باسم «كار كانديد» وهكذا جرت تسميتي لها في كتاباتي التاريخية السابقة، وبعد التحقق من المصادر التركية القديمة وجدت ان اسمها القديم هو «قره غين دده»!

وإكتسبها العثمانيون، ثم تتابع سقوط: جيرميك، وارغني، وعناق، وبتليس. وهزن، وأورمايا، وجزيرة ابن عمر والعمادية.. فضلاً عن حران والفرات الاوسط إمتدادا من سنجار وتلعفر والبادية حتى عنه وحديثة وهيت وغيرها.

كان سقوط المناطق الآنف ذكرها من بلاد الجزيرة الفراتية بعد مايس ١٥١٦ مباشرة وتعد من أول المناطق العربية التي سقطت بيد العثمانيين، وخاصة مدينة الموصل التي هي قاعدة هذا الاقليم الفاصل بين الوطن العربي والاناضول التركي. وكان لجهود الشيخ البدليسي الاثر البالغ في تقدم الهيمنة العثمانية وفاعليتها. على إمتدادات مختلفة من اقليم الجزيرة الفراتية.. وإستطاع سليم الاول أن ينقل حدوده السياسية من سيواس وأدنة إلى تخوم الموصل وأرارات*.

إن مجمل التحركات الحربية والسياسية لقوى سليم الاول في الجبهة الشرقية من دولته، وخلال أربع سنوات من عهده، يوضح لنا مقدار ما أنجز من عمليات ضخمة كان من نتائجها السيطرة على اجزاء مركزية واستراتيجية من دواخل الوطن العربي.. وقد جاء ذلك مترافقاً في الزمان والمكان معاً وعلى النحو التالي:-

(١) المحاور الجغرافية لما بعد معركة جالديران في ٢٣ آب اغطس ١٥١٤م:

١- خط تبريز- «اريفان-» كرباغ سنة ١٥١٤م.

٢- خط أماسيه- «كياخ-» سنة ١٥١٥م.

٣. خط ديار بكر -«ماردين-» الموصل (= شمالي العراق) سنة ١٥١٦م.

(٢) المحاور الجغرافية لما بعد معركة مرج دابق في ٢٤ آب / اغسطس ١٥١٦م:

---

* راجع التفاصيل في: د. سيار الجميل، «دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل وإقليم الجزيرة سنة ١٥١٦م وبدايات الصراع العثماني - الايراني (الصفوي) في عهد السلطان سليم الاول»، مجلة بين النهرين، العددان (٣٠) و(٣١)، الموصل، ١٩٨٠.

وانظر مادة «سليم الاول» في الانسكلوبيديا الاسلامية:

The Encyclopedia of Islam, I st ed., IV, pp 214-7

وراجع ما كتبه فون هامر بور جشتال ولونكريك ودونالد بيتجر.

٠١ خط حلب ـ دمشق ـ القدس ـ غزة ـ خان يونس سنة ١٥١٦م.

٠٢ خط مصر : الريدانية ـ القاهرة ـ الاسكندرية سنة ١٥١٧م.

لندرس الآن تاريخية عمليات السيطرة على المحاور الجغرافية لكل من بلاد الشام (سوريا / لبنان / فلسطين) ومصر، وذلك من خلال صراع العثمانيين مع المماليك.

٦/ الخطط العسكرية العثمانية - البرية في الوطن العربي:-

١- الصراع مع المماليك: العلل والمسببات:

كانت جيوش السلطان سليم الأول قد سيطرت على أقاليم كبرى في شرقي الاناضول كاذربيجان وأرمينيا، وذلك خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين معركتي جالديران وقره غين دده، أي بين آب / اغسطس ١٥١٤م ومايس / ايار ١٥١٦م، وخاصة ابان الشهور الاولى من تلك الفترة التاريخية .. كان سليم قد عاد من العاصمة الارمينية ليفتح مدينة «كيماخ»، وكان قد وجّه أحد جيوشه ليزيل الامارة القادرية (دولة ذو القدر) التي كانت تمتلك علاقات سياسية واقتصادية مع الصفويين من طرف، ومع المماليك الجراكسة من طرف آخر.

هكذا، أصبح الطريق منفتحاً أمام السلطان سليم الأول بين اريفان العاصمة الارمنية وحدود الوطن العربي، لكي يواجه المماليك الجيش العثماني بعد أن امتلك العثمانيون تلك التخوم العليا من بلاد الجزيرة الفراتية، والمدن المهمة، الموصل وأربيل وديار بكر ومرعش وبستين وعين تاب وملطية... وغيرها، ولكن سليماً لم يبدأ عملياته الكبرى في بلاد الشام، الا بعد سيطرته الكاملة على بلاد الجزيرة الفراتية وبضمنها شمالي العراق وتصفية كافة مناطقها من الجيوب الصفوية.

لقد نجح سليم الأول باستئصال قوة الصفويين، وبدأ يعمل باتجاه الانهيار المملوكي، وكانت الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام تعاني كثيراً سياسيا واقتصادياً من حركات الاساطيل البرتغالية في البحار الشرقية، ولاسيما البحر العربي والبحر الاحمر. فمنذ بداية عام ١٥٠٢م، والبرتغاليون يزرعون قواهم البحرية الشرسة في أماكن استراتيجية على طريق الهند، ونجحوا في تلك السنة من ترسيخ قوتهم في الهند، فتحكموا في المصالح الاقتصادية بين الغرب والشرق

بعد استكشافهم رأس الرجاء الصالح واستخداماتهم للمسالك البحرية البعيدة، فقل النفوذ الاقتصادي للمنافذ الاستراتيجية البرية العربية.

لقد انهار الاقتصاد المملوكي في مصر وبلاد الشام وبقية الاقتصاديات العربية الاخرى بفعل احتلال البرتغال لجزيرة سوقطرة في خليج عدن سنة ١٥٠٧م، ولمضيق هرمز في الخليج العربي سنة ١٥٠٨م. وعملت السيطرة البرتغالية على كل من هاتين المنطقتين الاستراتيجيتين على عدم التمكن نهائياً من نفاذ الاقتصاديات المملوكية من ناحية والعربية من ناحية أخرى. وكان موقف اسماعيل الصفوي ممالئاً للبرتغاليين بل وكان راغباً في مساعدة البرتغاليين، وتزويد سفنهم بالمؤن والذخائر مقابل دعمه واسناده ضد العثمانيين.

لقد استاء المماليك كثيراً نتيجة للتدهورات الاقتصادية، وخاصة بما لحق بمصالحهم الاقليمية، فاستجاب السلطان سليم الأول لمطاليبهم الأولى، اذ أرسل لهم أسلحة ومدافع وتجهيزات بحرية وسفنا قوية وبحارة مساعدين بغرض اعادة بناء الاسطول المملوكي، وتشكيل قوة بحرية مملوكية تصمد بوجه البرتغاليين في البحر الأحمر... اراد سليم ان يهيمن بذلك على المماليك، ويخلق حالة من توازن القوى البحرية في المنطقة العربية، وان يكسب دولة المماليك حيادها تجاه صراعه ضد الصفويين. ولا أحد يعلم ماذا كان يدور في ذهن سليم الأول.

كان الموقف السياسي مضطرباً جداً بعد الحملة العثمانية على الصفويين، وبعد انتصار سليم الأول عليهم في معركة جالديران عام ١٥١٤م، وما ان تأمنت جميع المنافذ والتخوم والمسالك الفاصلة بين الاناضول والاراضي العربية حتى تحرك الجيش العثماني عبر الاناضول في ربيع ١٥١٦م، وقد ساورت الشكوك المماليك من أمر تحرك ذلك الجيش وآلياته الحربية وعدته الكبرى وقيادته الامبراطورية، ولما تاكد لهم ان بلاد الشام هي غاية ذلك التحرك فقد حرّك المماليك جيشهم الرئيسي لمواجهة العثمانيين... وكانت قوى ذلك الجيش قد توغلت في جبال طوروس.

نصب خاير بيك قائداً للجيش المملوكي (الشامي)، على الرغم من كونه حاكماً لحلب وكان على اتصال سري بالعثمانيين، مرسلاً بعض موظفيه الكبار سراً يحملون رسائله بغية التعاون والمساعدة للسلطان سليم الاول، إن هو غزا بلاد

الشام، وما سيؤمن لهم من مداخيل ومناصب عليا إثر انتصاراته.. اما القائد العام لجيش دولة المماليك فكان سلطانها نفسه الاشرف قانصوه الغوري، وقد نجح سليم الأول في استدراج المماليك الى ساحة المنازلة باسلوب استراتيجي وبسياسة ذكية باردة.

تحرّك جيش سليم الاول نحو المقاطعات العربية (المملوكية)، وتوقف قرب ملاطية في يوم ٢٨ تموز/ يوليو ١٥١٦م، اي بعد قرابة شهرين من معركة قره غين دده الفاصلة ضد الجيوش الصفوية. لقد تتابعت السيطرة العثمانية للاراضي العربية الشامية وإنهيار القوى المملوكية بصورة متسارعة بعد استنزاف قواها وإمتصاص حيويتها إثر فرار عدد من القواد المماليك الكبار مثل خاير بيك وجان بردى الغزالي.. كما وإن السوريين من سكان البلاد قد نفروا من دعم وإسناد الجانب المملوكي المنهار.

٢- معركة مرج دابق ونتائجها:

نشبت المعركة الرئيسية الوحيدة بين العثمانيين والمماليك في سهل مرج دابق قرب حلب في يوم ٢٤ آب/ أغسطس ١٥١٦م، وقد كفل ذلك الانتصار العثماني الذي تحقق في تلك المعركة الفاصلة: الانضباط والاسلحة الجديدة وممارسة تدابير وخطط عسكرية ناجحة. لم يبق في ساحة المعركة الا الاشرف الغوري مع جيشه في الوسط بعد أن فرّت كل من الميمنة والميسرة لخاير بيك وجان بردى الغزالي، وكانت الهجمة العثمانية قوية جداً في حصد المماليك وسحق فلولهم، وخرّ الاشرف الغوري صريعا في ساحة المعركة.

اكتسح السلطان سليم الأول الاراضي السورية واندفع اندفاعا سريعا، فسيطر على مدينة حلب يوم ٢٨ آب/ اغسطس، وحماه في يوم ١٩ ايلول/ سبتمبر، ودمشق يوم ٢٧ايلول/ سبتمبر. ويعلمنا عدة من المؤرخين العرب القدماء، أن السكان العرب وحكامهم المحليين كانوا يرحبون بالجيش العثماني ويحتفون بمقدم السلطان العثماني الجديد، وبصورة لم يألفها اي فاتح عثماني من قبل في غزواته الكبرى والصغرى..في حين عادت فلول المماليك الى عاصمتهم القاهرة وقد نصبوا عليها سلطانا جديداً في يوم ١١ تشرين الاول/ اكتوبر. وهو طومان باي الذي نجح نجاحاً مبتسراً ومحدداً في اعادة تشكيل جيش مملوكي جديد في مصر.

لم يتـوقف السلطان سليم الاول في مكان واحـد من بلاد الشـام، بل سلك مسـالك عدة للمرور في المدن الرئيسية واسـترضـاء الاهلين، فضـلاً عن الاقاليم، واستقباله لرؤساء العشائر العربية، وكبار الجماعات الدينية للمسلمين، وغير المسلمين... وقد اطلق عليه العرب «خادم الحرمين الشريفين»، «فمهد الملك ويجري العدل والسياسة ويحسن الى العرب.. ثم توجّه الى افتتاح اقليم مصر، ودفع البؤس عنها» *.

٣- الامتداد نحو مصر بعد بلاد الشام:

عبر الجيش العثماني شبه جزيرة سيناء بتجهيزاته وعدّته ومدافعه في خمسة ايام، اي للفترة ١١- ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٥١٧م. وكان المماليك قد نصبوا طومان باي سلطاناً جديداً عليهم بعد مصرع الغوري، وسعى طومان باي لتكوين جيش مملوكي جديد يواجه به الزحف العثماني السريع على القاهرة. وكان السلطان سليم الاول قد زار بصورة شخصية وهو في طريقه الى مصر كلاً من مدينتي القدس والخليل، عاد بعد ذلك الى معسكره ليواصل تقدمه نحو خان يونس وغزة.. وقد احسن الى الرعايا في كل بلدة وقصبة وقرية مرّ بها..

كان المماليك الجراكسة قد تجمع جيشهم لصد العثمانيين عند منطقة «الريدانية» خارج القاهرة، واستعدوا بالمدافع والبارود لمواجهة العثمانيين، وقد اطلع العثمانيون على الخطط المملوكية من خلال استخباراتهم وجواسيسهم، فالتفوا حول جبل المقطم، وبدأوا بالهجوم المدفعي على الجراكسة من الخلف، والذين لم تنفعهم آلياتهم في وقت كان طومان باي يناضل بشراسة رفقة بعض مرافقيه. وقد قتل الوزير العثماني سنان باشا في ذلك اليوم... ولكن لم يلبث المماليك حتى تشتت شملهم، وهرب طومان باي الى البر ونزل على شيخ عربان من بني جذام عبد الدايم بن بقر.

دخل السلطان سليم الى مصر وأمّن الناس ما عدا الجراكسة الذين أمر بضرب رقابهم ورمي جثثهم في نهر النيل. لقد سحق المماليك الجراكسة في موقعة الريدانية بين سيناء والقاهرة خلال نهار واحد من يوم ٢٢كانون الثاني/ يناير

---

* انظر النهروالي: المصدر السابق، جـ٣ ٢ص ٢٧٨-٢٧٩.

١٥١٧م، وهلك الالاف من المماليك، اما الذين استسلموا بلا مقاومة فقد صدر امر العفو عنهم.. وقد سيطر الجيش العثماني على القاهرة في يوم ٢٥ من الشهر المذكور، وجعلها مركزاً حقيقياً للادارة الجديدة والحياة الاقتصادية.. في حين بدأ طومان باي بتنظيم قواته المتبقية ليقود حركة مقاومة عنيفة باسلوب حرب العصابات دامت معركتها ثلاثة ايام قاسية ذهب ضحيتها الآلاف من القتلى وتحطمت احياء كاملة من القاهرة. واستمر المماليك يدافعون عن وجودهم في مصر حتى الرمق الاخير وبعد مطاردات عنيفة في الدلتا ومصر العليا.

بدأ الحكم العثماني في مصر يترسخ يوماً بعد آخر، اما طومان باي فقد خانه مضيفه إذ وشى به عند السلطان سليم الاول، وقد احضره عنده في «مجلس الصحبة» وبدأ يستشيره في احوال البلاد، وقد اعجب السلطان بطومان وفكر أن يقلده نيابة مصر، ولكن سرت شائعات في القاهرة تقول باختفاء طومان باي وتنظيمه لجيش جديد يقاتل به الغزاة.. وبدأ المصريون يتحدثون عن شجاعة طومان باي، فبلغت هذه الشائعات اسماع سليم الاول، فأمر باخراجه تحّف به الانكشارية نحو باب زويلة حيث اعدم هناك في ١٣ نيسان/ ابريل ١٥١٧م، والناس من حوله يشيدون بروحه النضالية المقاتلة ونضال جماعته*..

لم يكن هذا الحادث التاريخي هو نهاية المماليك في مصر برغم حصارهم وانهيارهم واخماد جذوتهم، إذ سيبدأ سليم الاول بالاعتماد على خبرات من ايدّه منهم، وكان قد تقبل ولاءات رؤساء العشائر البدوية، كما وتسلم ولاء شريف مكة في ٣ تموز/ يوليو ١٥١٧م فنصبه سليم حاكماً على جدة والحجاز فضلاً عن مكة والمدينة، فوقع الحجاز بايدي العثمانيين دون قتال، وبدأت التطبيقات الادارية الجديدة فيه... وسيكون اقليم الحجاز منذ ذلك الوقت حلقة اتصال استراتيجية بين العثمانيين واليمن.

لقد زار السلطان سليم الأول مدينة الاسكندرية التي استسلمت لقواته طوعا، وبدأ تنظيم الادارة العثمانية في مصر، ثم قرّر العودة بجيشه الى الاناضول من

---

* من أبرز المصادر المعتمدة، انظر ابن اياس، بدائع الزهور، تحقيق: محمد مصطفى القاهرة، ١٩٦٠.

غير ان يرفع يده عن بلاد الشام ومصر. في حين كان الاسطول العثماني قد شرع بالعودة الى العاصمة اسطنبول وعلى متنه المتوكل العباسي، ذلك الخليفة الشرعي الذي يمثل رمزاً دينياً مقدساً كان يعيش في ظل المماليك بالقاهرة. وكان بمعيته في الاسطول ٢٠٠٠ من كبار التجار والحرفيين والصنّاع والبنائين ورجال الدين، فانتحسر سليم سياسياً بالسيطرة على قلب الوطن العربي، وحضارياً في جلبه للآلاف المؤلفة من الرجال المدربين العرب والفرس كي تدخل الخدمات الحضارية بوساطتهم الادارة العثمانية، ويؤثروا في بنيتها وعملياتها، وذلك بعد عودة الاسطول العثماني مباشرة ووصوله اسطنبول.

٧/ السيطرة على العراق:-

كانت الفوضى والاضطرابات تعم بغداد عند مطلع القرن السادس عشر، بعد وقوعها تحت حكم الصفويين، إذ سيطر عليها الشاه اسماعيل الصفوي سنة ١٥٠٨م/ ٩١٤هـ ثم سيطر على اجزاء العراق كافة محاولاً تأسيس كيان طائفي في قلب الخلافة العباسية وبعد عمليات قتل وهدم وحرق.. وهذا كله جعل السلطان سليمان القانوني يبدأ بالتخطيط لبدء صفحة جديدة من الصراع ضد الصفويين، وكانت حوادث الحدود بين الدولتين، الصفوية والعثمانية احد الاسباب المباشرة التي أذكت نار الحرب من جديد، فضلاً عن عوامل استراتيجية في الاستحواذ على اقتصاديات العالم من خلال السيطرة على العراق الذي كان يعد قلب العالم القديم ذلك أنه يربط خطوط التجارة بين اوروبا والشرق البعيد. في حين كان البرتغاليون يتحكمون في البحار الشرقية.

كان سليم الاول قد أمن امام ولده سليمان القانوني منطقة شمال العراق وبلاد الشام في سيطرته عليها. وتعد العوامل الاقتصادية والسياسية من ابرز الدواعي التاريخية في تفاقم الصراع الدولي والاقليمي على العراق ولواحقه واطرافه.

ابان بدايات العقد الثالث من القرن السادس عشر، انسلخ احد الولاة الصفويين واسمه «ذو الفقار» وكان منصباً على بغداد من قبل الشاه الصفوي.. وكان تمرّده بمثابة الضوء الاخضر لسلطنة اسطنبول، ودعوة لانقاذها بغداد والعراق الاوسط والجنوبي من النفوذ الايراني، وقد وأد الشاه تلك الحركة المتمردة عام ١٥٣٠م

بنفسه، فقضى على ذي الفقار وتم اغتياله.. وكان سليمان القانوني ينظر مترقباً اوضاع بغداد التي وصلته رسائل منها تطالب بانقاذها، وبدأت الاستعدادات العثمانية لخوض الحرب ضد ايران والسيطرة على العراق تقوم على قدم وساق.

اخترق الجيش العثماني بقيادة الوزير ابراهيم باشا الاناضولي، ووصل ديار بكر في يوم ٤ ١ايار/ مايس ١٥٣٤م، وبعد اسابيع، استسلمت جميع المدن حتى نقطة «وان» فانفتح الطريق امام العثمانيين نحو تبريز العاصمة الصفوية والتي دخلتها القوات العثمانية دون اي مقاومة، وتركزت الحاميات التركية في اذربيجان الاستراتيجية.

لقد قاد السلطان سليمان القانوني جيشه العثماني الثاني، ولم يجد اية صعوبة في اثناء تقدمه نحو ايران. والتقى جيشه بجيش وزيره في تبريز، ثم مضى عنها ليدخل مدينة زانجان ثم مدينة سلطانية في يوم ١٣ تشرين الاول/ اكتوبر ١٥٤٣م.. ولم يلاحق الفرس اكثر في العمق الايراني وذلك لقسوة المناخ، فبدأ بالاتجاه نحو بغداد، فعبر جبال زاكروس الصعبة، ولاقى جيشه الكثير من المصاعب في البيئات الجبلية الوعرة، ثم غالبه الارتياح مذ اطل على سهول العراق المتموجة والمستوية..

كان الرأي العام في بغداد يميل الى استقبال القادم الجديد، مما حدا بالخان الايراني ان يفلت هارباً الى ايران، وتسلم السلطان مفاتيح بغداد في طريقه اليها.. ودخل الوزير الاعظم ابراهيم باشا بغداد دون مقاومة تذكر، في حين انتشر الجيش لينال قسطه من الراحة، ثم استعد الجميع لاستقبال السلطان سليمان القانوني وشاركه الجميع في دخوله بغداد العريقة. فكان دخولاً دون حرب ودون سفك دماء، وقد مضى شتاء سنة ١٥٣٤- ١٥٣٥م كاملاً في العراق، مؤسساً الادارة الجديدة والنظام الضرائبي الجديد، والسياسة الاقتصادية للعراق.. وبدأ السكان وجميع الفئات الاجتماعية حياة جديدة، إذ بوشر باصلاحات في الري والعمران، وزار السلطان القانوني عدداً من الاماكن والمدن والعتبات المقدسة. ونصب الولاة الاتراك الجدد، وأسس الحاميات العسكرية، وطبق النظام الاقطاعي- العسكري.

هذه هي ابرز اعمال القانوني في العراق، لقد دخل جنوب العراق في طاعته بعد سلسلة من الاجراءات المحلية اذ تعاقبت السيطرة العثمانية على البصرة ثم القطيف والبحرين، في حين عاد الشاه الصفوي ليسيطر على اقليم اذربيجان مرة اخرى بعد دعوة السلطان سليمان القانوني لكي يوجه ضربة اخرى للصفويين من اجل استعادة تبريز. غادر القانوني بغداد في نيسان/ ابريل ١٥٣٥، وكان من نتائج حملته في السيطرة على العراق ان تلك السنة غدت حداً فاصلاً بين عصرين كاملين في تاريخ العراق وبدأ منها ما اصطلح على تسميته بـ «تاريخ العراق الحديث»، دخل العراق تحت سيطرة العثمانيين، ونقلت حدود دولتهم نحو الخليج العربي، وامتدت امبراطورية القانوني من هنغاريا والنمسا في قلب اوروبا حتى امارة شرقي شط العرب!

وكان من نتائج السيطرة العثمانية ايضاً أن بدا العراق، وحدة اقليمية مترابطة لم تكن من ذي قبل، ولاول مرة في بدء حياة تاريخه الحديث خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر، ونظمت ادارة العراق «قانونياً» ضمن نظام الشرق المعروف الذي اوجده القانوني نفسه، وبدأت الحياة العثمانية الاقليمية للعراق إثر تطبيق للخطط السياسية العثمانية.

لقد أنشد وثاق بلاد وادي الرافدين جغرافياً وتاريخياً، ولاول مرة بعد قرون عدة من التمايز الاقليمي.. كما وإن جهود سليم الاول وسليمان القانوني وعملياتهم قد حدت من نفوذ الصفويين وتوسعاتهم في الاراضي العربية، لكنها قبضت في الوقت نفسه على انفاس العراق الذي غدا مسرحاً للصراع التاريخي المزمن بين العثمانيين والايرانيين. في سبيل التحكم بمنافذه ومسالكه الاستراتيجية. اذ احكم العثمانيون الطوق القوي على استراتيجية الطرق الجغرافية: البرية والبحرية. وعلى قواه البشرية ومدنه واراضيه ودساكره وتوابعه، وسيطرت على حركته الاقتصادية. وخاصة على موارد وصادرات مدن العراق التجارية.. وبدت الرقعة الزراعية الواسعة الخصبة والغنية بتربتها ومياهها: مقسمة لاول مرة، وعلى نحو جديد الى وحدات اقطاعية- عسكرية.

من جانب آخر، ارتبطت اقاليم العراق بما لها من توابع ولواحق.. بالسلطة المركزية ولم يعد للعراق كيانه السياسي الموحد خوف انفصاله عن تلك السلطة العليا، والتي انفتح امام خزانة السلطنة في اسطنبول باب جديد من الموارد والضرائب والهدايا ومنح الولاة الذين حكموا ادارة بولاياته الثلاث: الموصل وبغداد والبصرة، وعلى غرار بقية ولايات الامبراطورية قاطبة. لقد تمخض النظام العثماني الجديد للعراق عن بدايات حقيقية في التحولات العثمانية.. كانت ولاية بغداد مستقطبة قلب العراق، واستقطبت ولاية الموصل رأسه الاعلى. أما ولاية البصرة، فقد حكمت طوق استراتيجية البحري من خلال شط العرب، وما يحيط به من تخوم عربية ومركزيتها الخليجية*.

---

* للاستزادة التاريخية: انظر ما كتبه: فون هامر بورجشتال والنهروالي ومرتضى نظمي زادة وياسين الخطيب العمري ..ومن المحدثين: لونكريك وعباس العزاوي ولوريمر وروبرت منتران ودونالد بيتجر (ومقالة حرب العراق ١٥٣٤ – ١٥٣٥م) في «الانسكلوبيديا التركية:
Islam Ansiklopedisi Cuz 3, Istanbul , 1967, SS. 116-118.

وللايجاز راجع . د. سيار الجميل ، «استراتيجية العراق واثرها في نشوء الصراع العثماني الايراني» مجلة آفاق عربية العدد(١٠) حزيران : ١٩٨١.

٢-الحروب البحرية :-

١ / الصراع العثماني البحري ضد الهابسبورك وفرسان القديس يوحنا (ظهور خير الدين باربروسا ومجهوداته في البحر المتوسط) :

لقد تبلور الصراع التاريخي بين العالم الاسلامي واوروبا بعد ان اتخذ له مساراً فعالا في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال الازمان العثمانية، مبتدئاً من القرن السادس عشر. لقد ورث الاتراك نظرة العرب وموقفهم التاريخي ازاء ملكيتهم للبحر المتوسط. انها فكرة «مملكة الاسلام» التي تبدو تكويناتها على مستوى من الدقة والكفاءة ابتداء من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، بعد تكوين الجغرافية الادارية عند العرب (= ادارات الاقاليم / الامصار) ..ولا يكتفي الوطن العربي ان يكون ضمن العالم القديم ومندمجاً فيه فقط، وإنما ليأخذ هذا العالم القديم على عاتقه ويتملكه لأنه يعرفه ويعانيه * .

وكانت اوروبا قد بدأت تخرج عن اسار «العالم القديم» في عصر دعي بـ «الاستكشافات» وكشف العالم الجديد، والبدء باستعماره ، فضلاً عن التفافها حول العالم القديم وتنفيذ مشاريعها الكبرى في السيطرة عليه. وقد أتى ذلك كله متبلوراً خلال مراحل التاريخ الحديث التي استطاعت اوروبا خلالها ان تغير من الانماط الكلاسيكية في التعامل بقواها البحرية مع العالم أجمع قديمه وجديده.. وهكذا، ستغدو صورة الصراع غير المتكافئ بين الامبراطورية العثمانية والدول الاوروبية.

كانت ايطاليا مقطعة الاوصال .. اما اسبانيا فكانت تأكلها الانقسامات، وفرنسا لاهية بحروبها مع انكلترا على مدى زمني يقدر بمئات السنين. فلم تكن هناك من هيمنة اوروبية قوية على البحر المتوسط.. ولكن تغير الموقف بنهوض الدول الاوروبية في نهاية القرن الخامس عشر، إذ بدأت ثمة محاولات أولى في

---

* للاستزادة، انظر : د. سيار الجميل ، «البحر المتوسط: الشرعية التاريخية العربية : مساهمة معرفية في تصحيح بعض المفاهيم» مجلة دراسات عربية، العدد(٩)، السنة (٢٤)، تموز/ يوليو ١٩٨٨، ص ١١٠-١٢٠

استراتيجياتها لملء الفراغ الكبير الذي احدثته القوى المناوئة للغرب. لقد اتحدت اسبانيا بمصاهرة سياسية ناجحة لكل من حكام ارغون وكاستيل، فقويت بفعل الوحدة السياسية والدينية والاحقاد القديمة على آخر ملوك غرناطة المسلمين عند سقوط هؤلاء من بني الاحمر عام ١٤٩٢م.

ونافست فرنسا كلاً من اسبانيا وايطاليا بفعل طموحات كل من الدولتين للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. وكان المغرب العربي يستقبل اولئك «الموريسكيين» من العرب المسلمين النازحين البائسين بفعل الاضطهاد الكاثوليكي المرير الذي مارسته اسبانيا الكاثوليكية.. إذ نزح الموريسكيون نحو السواحل المغاربية – العربية، ثم انطلقوا منها باساطيلهم كرد فعل قوي ضد القرصنة الاوروبية .. وليهاجموا السواحل الاوروبية بشكل غارات منتظمة. ولم يتوقف الاسبان عند حدودهم الساحلية الطويلة، بل امتدت اساطيلهم القوية ليحتلوا عدداً من النقاط الاستراتيجية في كل من المغرب والجزائر فانتزعوا تلك المدن العريقة من الاسر الاسلامية الحاكمة اقليمياً ام محلياً.

كان الحفصيون قد نفذوا بمصالحهم في الجزائر التي قبلهم ورحب بهم اهاليها، وسمحوا لهم بتأسيس حصن بحري في جزيرة اجيكنت قرب بنيون – دارجيل. لقد توالدت حالة صراع جديدة هي غير الحالات التي الفتها تواريخ العصور الوسطى. ففي خضم جبروت القوى الاوروبية – البحرية الجديدة بدت القوى العربية الاسلامية الاقليمية: غنيمة سخية الثراء بكل امكانياتها وغنى اراضيها ومجتمعاتها المدينية، متاحة امام شراهة النفوذ الاوروبي.

هكذا، بدأت المواجهة الفعلية ضد القوى العثمانية صاحبة اكبر سيادة سياسية وبحرية في الحوض الشرقي للمتوسط، وتمثلت المواجهة ببروز رجلين اكتسبا شهرتهما في البحر، وامتلكا من خلاله خصوصية ناجحة، وهما اخوان من أب تركي وأم اندلسية. وكان اول بروزهما في جزيرة «ميدلي» (=mitilene): عروج ريّس وخسر و ريّس اللذين استقرا في كوليطا (= حلق الوادي) سنة ١٥٠٢م وهو ميناء تونسي شهير. واستطاعا من هناك ان يقابلا القرصنة الاسبانية ببناء امبراطوريتهما البحرية، وقد نجحا في ذلك نجاحا باهراً عندما اتصلا وتحالفا

عمليا مع اغلب الموارسكة في المنطقة من الذين فروا بدينهم وخصوصيتهم امام الاستئصال الاسباني لهم. وكانوا من البحارة الاذكياء في غاراتهم وعملياتهم ضد السواحل الاوروبية *.

و سرّت مرحلة زمنية صعبة اكتسب خلالها كل من الاخوين «عروج» و يحلرتهما على الجزائريين، ولكن الاسبان اتخذوا من بعض الأسر المحلية في المغرب العربي أدوات وصنائع لمواجهة نفوذ كل من الاخوين عروج، فتبلور صراع اقليمي اذكت اسبانيا مسبباته وعناصره. وفي مداخلات تلك الازمة، سقط عروج ريس صريعا قرب تلمسان في غربي الجزائر، فاستفاد اخوه خسرو ريس من تجربة ذلك الصراع الخارجي والازمة الاقليمية، ليبرز صاحب مكانة سياسية، و كمسلم عظيم شاعت بطولاته البحرية ضد الغزاة الاجانب. وكان يدعى باسم «خير الدين» من قبل المسلمين، وباسم «باربا روسا» (أي: ذو اللحية الحمراء) من قبل الاوروبيين الذين كان يهاجمهم بسفنه.

تقدم خير الدين باربا روسا بطلب المساعدات العثمانية بعد سيطرة سليم الاول على مصر مباشرة، وقد كسب الجولة بطريقة ذكية عندما طلب الترخيص من السلطان العثماني تزويده بالمدد العسكري والبحارة الملاحين من الاناضول. وأن تضمن له الحكومة العثمانية: المدفعية والقوة المسلحة والبارود لتقوية اسطوله.. و يكون مقابل ذلك. ضم السكان الجزائريين الى الامبراطورية العثمانية، فتم له ما اراد. فضلا عن تنصيبه حاكما على الجزائر.

لقد انتهى عهد سليم الاول بسرعة ليأتي من بعده سليمان القانوني مواصلاً الاستعدادات في بداية سنوات عهده الطويل، ولكن تركيزاته كانت منحصرة في الحملات العثمانية البرية الكبرى على الاراضي الاوروبية والآسيوية.. وعندما كان القانوني يحاصر عاصمة الهابسبورك النمساوية ولاول مرة سنة ١٥٢٩م، بدأت سلسلة من غارات القرصنة، فقدر لباربروسا ان يسترد الجزائر ويضيف جزيرة بينون – دارجيل الى مجاله العثماني.

---

* من افضل الكتب التي عالجت هذا الموضوع، كتاب المؤرخ اندروهس، افتراق العالمين الاسلامي و المسيحي في المغرب والاندلس، ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى، ط١، الكويت ١٩٨٦م.

اكتسب جارلس الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وسليل الهابسبورك خدمات ذلك الادميرال الجنوي القوي اندريا دوريا الذي كان قد هزم اساطيل الهابسبورك مرتين : في سنة ١٥٢٤م، وسنة ١٥٢٨م، وبدأ يبني اسطوله الرئيسي الجديد الذي توزع عند جزيرة رودس وطرابلس الغرب وجزيرة مالطة سنة ١٥٣٠م ، وشكل قواعد قوية للحركة في الحوض الشرقي للمتوسط على الرغم من الاسطول العثماني الضخم الذي كان متروكاً في البحر منذ عهد بايزيد الثاني .. ناهيك عن احواض بناء سفنهم وموانئهم ، ووفرة اخشابهم ورجالهم واموالهم .. وتعد سنة ١٥٢٤م/ ٩٤٠هـ، سنة حاسمة، إذ اسندت اسطنبول قيادة الاسطول العثماني كله لباربروسا لكي يستطيع التعامل الحربي مع السواحل الايطالية ، ويحرر تونس والجزائر وطرابلس الغرب .

لقد مارس اندريا دوريا تخريبات متعددة في السواحل الاغريقية ، واستولى على موانئ مهمة مثل ، ليبانتو وكورون في ايلول/ سبتمبر ١٥٣٢م، مما دعا السلطان القانوني أن يوعز لباربروسا القيام بدرء تلك الافتزازات التي يثيرها فرسان القديس يوحنا. فابحر باربروسا نحو اسطنبول التي نصبته ادميرالا اعظم للاساطيل العثمانية (= قبودان باشا او قبوداني ديريا) في ٢٧/ ١٢/ ١٥٣٣م، واهلته الدولة بمئات السفن، كما أمر ببناء اسطول جديد لمواجهة الهابسبورك.. وكان لباربروسا قباطنته ورجاله من المحاربين والملاحين الذين رباهم على يديه من اجل تحرير التراب المغاربي من الاعداء *.

وهكذا، فبينما كان سليمان القانوني يمتد بجيوشه برا في آسيا، كان باربروسا يمخر باسطوله بحراً على سواحل المتوسط.. وعندما كان القانوني يقضي ربيع سنة ١٥٣٤م في العراق، كانت كل من كوردن وليبانتو قد استعيدتا، ومنهما طولاً في خط بحري يصل حتى تونس التي استعيدت من سواحلها في ٢ نيسان/ ابريل ١٥٣٤م.. في حين خربت سواحل جنوب غربي ايطاليا لمساعدة الفرنسيين ضد الهابسبورك. وقد جعل باربروسا قاعدته في تونس التي مكنته من مهاجمة جزيرة صقلية (= سيسلي)، فوصلت قوة امتداده البحرية إلى الحوض

---

* الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، جـ٢، ١٩٥٥، وانظر التفاصيل في: وليم سبينسر، الجزائر في عهد رياس البحر تعريب، وتعليق : عبد القادر زبادية ، الجزائر ١٩٨٠.

الغربي للمتوسط.. ولكن اندريا دوريا ينظم حملة صليبية ويحتل بأسطوله تونس في ٢١ تموز/ يوليو ١٥٣٥م وقد حكمها بصرامة وقسوة لكي يحول دون تحقيق الامال العثمانية في اراضي المغرب العربي.

لقد شجع الفرنسيون باربروسا كي ينضوي بخدماته تحت تصرف القانوني، بغية اثارة المشكلات للهابسبورك بخاصة.. فكان التعاون العثماني- الفرنسي وثيقا ضد الهابسبورك فما أن وصل السلطان القانوني من العراق في شهر مايس ١٥٣٥م حتى قابله السفير الفرنسي، لينقل اليه العروض في دمج الحركة للصراع ضد الهابسبورك ..فتوصل الطرفان الى عقد معاهدة شهيرة اتفق فيها القانوني وفرانسوا الاول على مبدأ تحقيق «الامتيازات الاجنبية» عام ١٥٣٦م التي كانت تستهدف دعم النضال ضد قوتين مكروهتين من قبلهما هما : بابا روما والامبراطورية الرومانية المقدسة التي تقف اسرة الهابسبورك على رأسها ..وهذا ما ساعد فرنسا كثيراً في خروجها وبروزها على العالم كدولة قومية في القرن السادس عشر .

كان للتحالف العثماني - الفرنسي سنة ١٥٣٦م مثار قلق جارلس الخامس، والذي قابله بتشكيل حلف مقدس ضد العثمانيين، مؤملاً ان يسقط ذلك بيد فرنسا فترتبك دينياً وتتخلى عن حليفتها الامبراطورية العثمانية .. وجرت محاولات عدة بفصل العلاقة بين الايالة الجزائرية/ الباربروسية والعاصمة العثمانية اسطنبول فلم تنجح المحاولات تلك، إذ شغل الصراع البحري المحتدم على مدى عشر سنوات ١٥٣٦- ١٥٤٦م، كان باربروسا بطلها الشهير، قدم الرجل خلالها خدمات تاريخية لا تقدر بثمن لأبناء تونس والجزائر، وعندما مات خير الدين في ١٠يوليو/ تموز ١٥٤٦م، كانت الجزائر قد غدت ايالة عثمانية قوية *.

ويبدو أن ابناء الجزائر وتونس وطرابلس الغرب قد تكاتفوا وتعاونوا في استقبال الرحلة العثمانية والقادم التركي البعيد عبر البحر المتوسط للوقوف بوجه القوى الكاثوليكية لإسبانيا وفرسان القديس يوحنا، وكان باربروسا قد تعب كثيراً في ترسيخ السيطرة العثمانية في الاراضي المغاربية.

---

* Ernle Bradford, The Sultan's Admiral : a Life of Barbarossa, London, 1968, pp. 31-104.

٢ / الحرب العثمانية في البحار الشرقية:

بينما كان العثمانيون يقاتلون الهابسبورك وفرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط، ويصارعون القوى الاوربية برا.. وضعت السيطرة العثمانية للوطن العربي هي الاخرى موضع التنفيذ الشامل من خلال النزاع البحري المرير ضد الهيمنة البرتغالية في البحار الشرقية. لقد كان البرتغاليون يكرسون خططهم وعملياتهم لاختراق تلك البحار نحو الشرق البعيد من خلال استراتيجية كبرى في نهاية القرن الخامس عشر.

ارسل الامير هنري (= الملاح) كثيراً من المستكشفين إلى السواحل الافريقية. وفي سنة ١٤٨٨م، اكتشف الملاحون البرتغاليون امكان الذهاب والالتفاف حول قارة افريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وبدرجة أقل عن العقد الذي تلاه. ففي سنة ١٤٩٧م، أبحر الاسطول البرتغالي تحت قيادة الربان الشهير فاسكو دي غاما، واستطاع بمساعدة العرب (= ابن ماجد على رأسهم) استخدام المسلك البحري غير المعروف للوصول إلى كلكتا. واستطاع البرتغاليون تطوير ذلك المسلك واحتكاره بسفنهم الكثيرة فقط، واسسوا قواعد بحرية جنوبي كلكتا بغية منافسة التجار العرب من مصر وسوريا والعراق الذين غدوا وقد طوقتهم القوى البحرية البرتغالية والتي اعتدت على حقوقهم ومصالحهم الراسخة.

حاصر الاسطول البرتغالي البحر الاحمر والخليج العربي سنة ١٥٠٢م لتطويق التجارة الدولية الكبرى بين الهند واوربا من خلال احتكار المسالك البحرية جميعا.. فوقعت مراكز استراتيجية مهمة في شرقي افريقيا بيد البرتغالية مثل. كلوه وممباسا وسوفالا وموزنبيق.. وغيرها. ويشير المؤرخ ستانفورد شو الى الدوافع الاقتصادية الكبرى وراء تلك السيطرة والتي جاءت بألبسة كاثوليكية وكمهام خّصها بابا روما لتطويق العالم الاسلامي من المؤخرة او الخلف.. وهذا ما حدث بالنسبة للعمليات الاسبانية التي نفذت بالاجراءات نفسها*.

لقد أثارت التحركات البرتغالية قلق دولة المماليك بمصر، بل واستاءت كثيرا إثر الوطأة العظمى للانقضاض البرتغالي السريع على البحار الشرقية والسواحل

---

*Cf. Stanford J. Shaw. History of the Ottoman Empire and modern Turkey, Vol. I. Cambridge, 1978, p. 99.

العربية بخاصة وتأثر الموانئ العربية الكبرى مثل : السويس والاسكندرية لتجارة البحر الاحمر، والبصرة وحلب وطرابلس الشام كمراكز تجارية يستقطب الخليج العربي عملياتها الدولية. وبلغت النتائج المالية والمشاكل الاقتصادية حدا من الصعوبة البالغة للمماليك الذين عجزوا عن بناء اسطول لهم باستطاعته فرض الارادة المملوكية وحماية الاراضي العربية.. ولكن؟

وكانت العمليات البرتغالية في البحار الشرقية احد العوامل الاساسية في التحرك العثماني نحو مصر، ليبدأ الجهد الرئيسي في العمل للرد على التهديدات البرتغالية. واسترجعت الاعمال في حوض بناء السفن بالسويس من قبل مهارات المماليك القدماء وصولاً إلى بناء بحرية منفصلة لها القدرة للسيطرة على البحر الاحمر ، وقد حددت مالية تلك البحرية خارج استحقاقات الرسوم الكمركية المصرية التي خصصت معظمها في تحقيق ذلك الهدف الاستراتيجي*.

كان الاسطول مستعداً للعمل في عقد الثلاثينات ، أي بعد سنة ١٥٣٠م، وخلال نفس الفترة التي كان السلطان سليمان القانوني فيها يسيطر على العراق والبصرة خصوصاً ، تلك المدينة الاستراتيجية البحرية التي تم استحداث اسطول آخر فيها. هكذا احتاط العثمانيون للفرصة في عمليات دفع ودفاع تطويقي ضد هجمات الاعداء السريعة المباغته.

غادر الاسطول العثماني السويس في ١٣ حزيران/ يونيو ١٥٣٨م ، تحت قيادة الوزير خادم سليمان باشا حاكم مصر ، وبينما كان عابرا الفجوة الاستراتيجية الضيقة من جنوبي البحر الاحمر استغل فرصة النزاعات الاسرية المحلية والاقليمية ليحتل المناطق الساحلية، مزودا الامبراطورية العثمانية ولاول مرة بقواعد استراتيجية جديدة للدفاع عن المنطقة العربية ضد الغرات المسيحية العنيفة، فكان ذلك في الحقيقة ، احد ابرز نجاحات الحملة العثمانية التي مضت في طريقها نحو الهند .

تزايد فعل الهيمنة العثمانية على خطوط البحر الاحمر وموانئه سنة بعد اخرى ، ففي عام ١٥٤٧م، احتلت صنعاء بعد مواجهات حربية مع البرتغاليين،

---

* Cf. W.E.D. Allen, Problems of Tukish Power in the Sixteenth Centery, London, 1963.

فتأمن للعثمانيين مكانة اقتصادية دولية ونفوذ سياسي فعال في المحيط الهندي. ومن اشهر قراصنة الترك في البحر الاحمر؛ بيري ريْس الذي نصب فيما بعد قائداً للاسطول العثماني في المحيط الهندي، وكانت له جهوده الكبرى في فرض السيادة العثمانية بين السويس وعدن على امتداد البحر الاحمر.. وبعد وفاته جرى تعيين سيدي علي قبطانا لاسطول البحر الاحمر.

لقد أثر الوجود العثماني في المياه الشرقية ايضا على التطورات التاريخية التي جرت في سواحل شرقي افريقيا، وبخاصة تلك المطلة على البحر الاحمر، وسقطت الموانئ التي كانت بيد البرتغاليين، وأهمها: سواكن وزيلع ومصّوع.. كما وجرت محاولة عثمانية لغزو الحبشة عام ١٥٤٢م. وفي عام ١٥٥٤م، احتلت مصّوع نهائياً، وطرد البرتغاليون نهائياً: وانشأت ايالة عثمانية سميت بـ «ايالة الحبش» كانت حلقة الوصل بين السلطنة العثمانية وافريقيا الاستوائية.

اما بالنسبة للخليج العربي، فقد غدت بغداد مصدرا للتحرك العثماني نحو جنوبي العراق والسواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية التي كانت امتداداتها تتصل بمركزية البصرة جغرافيا، وكان العثمانيون يهدفون إلى اقامة توازن استراتيجي بين سيطرتهم على مصر باتجاه البحر الاحمر وسيطرتهم على العراق باتجاه الخليج العربي، فشكلوا بذلك جناحين قويين ضد القوى البرتغالية في البحار الشرقية. وكما كانت السويس في مصر، كذلك كانت البصرة في العراق مركز تجمع وصناعة السفن التي استفاد منها العثمانيون كثيراً في مجابهة البرتغاليين.

عندما كان السلطان سليمان القانوني في بغداد ١٥٣٤ - ١٥٣٥، فقد تسلم خضوع راشد بن مغامس الذي ارسل رفقة ابنه مانع مفاتيح البصرة، متعهداً تقديم الطاعة والولاء.. ومن خلال البصرة امتد النفوذ العثماني نحو الاحساء والقطيف والبحرين، إذ غدت البصرة مركز ايالة بايلربيك، وقد نصب راشد بن مغامس حاكماً عليها، ثم اعقبه اياس باشا بايلر باي بغداد، تجريد حملة عثمانية للاستيلاء على البصرة وملحقاتها، فدخلها العثمانيون عسكريا في ٢٦ كانون الاول / ديسمبر ١٥٤٦م.

يذكر المؤرخ التركي صالح اوزبران أن الاتراك العثمانيين قد استحوذوا على اقليم الاحساء مباشرة بعد استيلائهم على البصرة، وامتدوا نحو القطيف ..كجزء من خطة عثمانية كبرى في مواجهة الوجود البرتغالي واساطيله القوية، وقد غدت البصرة من الولايات العثمانية المهمة. لقد امتد الحكم العثماني في سنجق الاحسا (الحسا) على مدى مرحلتين عثمانيتين مباشرتين: الاولى منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف عام ١٥٥٠م. والثانية: امتدادهم في منطقة الهفوف عام ١٥٥٥م*. ويكون العثمانيون بذلك قد جسّدوا وجودهم في مناطق الخليج ..إذ شكل العراق مع لواحقه البحرية في الخليج العربي منطقة متنوعة الاتجاهات لترانسيت العالم القديم.. ونجح العثمانيون من خلاله في استئصال النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي.

٢- التطبيقات الادارية العثمانية في الوطن العربي:-

١/ اقليم الجزيرة الفراتية: الادارة الاهلية:

لقد كانت بلاد الجزيرة الفراتية هي اولى المناطق العربية التي شملتها. اهتمامات السلطان سليم الأول بعد سيطرته عليها في مايس ١٥١٦م، إذ نصّب سليم مستشاره القانوني ادريس البدليسي (صاحب كتاب هشت بهشت) مفوضا للادارة الاهلية في تلك الاقاليم، وارسل له فرماناً شاهانياً يؤكد له فيه اتخاذ التدابير اللازمة لاقامة المؤسسات الادارية المحلية.. كما أرسل له سبعة عشر علما وخمسمائة خلعة من الخلع السلطانية الفاخرة لتوزيعها على رؤساء الحكومات القبلية والامراء المحليين، كما ارسل الى البدليسي هدية ثمينة مقابل ما أسداه

---

* Salih Ozbaran , "The Ottoman Turks and the Portuguese in the ..Gulf, 1534 - 1581" Journal of Asian History, Vol.6. No . 10, 1972, p. 116

(ترجمها الى العربية د. عبد الجبار ناجي)

وانظر الى العربية – د. احمد مصطفى ابو حاكمه، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة، ط١، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٤-٤٦، وقارن ذلك بما كتبه الكسندر آداموق، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة: د. هاشم صالح التكريتي، البصرة ١٩٨٢.

ومن الاهمية: مراجع ما كتبه كل من لونكريك وروبرت منتران وماندفيل وغيرهم.

للعثمانيين وللسلطان سليم الاول من خدمات، كانت عبارة عن خمسة وعشرين الف دوقة ذهب ..

كان السلطان سليم الاول يعتمد عليه اعتماداً كبيراً – كما توضح لنا ذلك من خلال قراءة ما بين ثنايا بعض فرامينه التي كان يرسلها للبدليسي – وكان بعد سيطرته على ديار بكر، يتأمل ان يكون سبباً فعالاً في السيطرة على امتدادات واقاليم اخرى . لقد نجح البدليسي في تقسيم ديار بكر المترامية الاطراف، الى سناجق من اجل تسهيل مهمة السيطرة عليها، ثم طبق هذا النظام نفسه على الرها والموصل التي نصب عليها الولاة الاتراك الى جانب ولاة ديار بكر وماردين ..

لقد اعلن زعماء الاقاليم ورؤساء العشائر وامراء المقاطعات ولاءهم للعثمانيين، ولكنهم اشترطوا على البدليسي استمرارهم في حكم اقطاعاتهم، وقد قطع الشيخ البدليسي لهم جميعاً مواثيق سياسية يبدأ العمل بها من خلال ما تنص عليه من مواد قانونية هي :

١- الاحتفاظ بعائدية تلك الاقطاعات واستقلاليتها.

٢- يجري حكم الوارثة من انتقال الاقطاع من الاب الى اولاده (الذكور).

واذا اراد التصرف بها حسب الاعراف المحلية السائدة، فيستوجب اذ ذاك اصدار فرمان سلطاني بالموافقة على ذلك.

٣- تقوم هذه الاقطاعات بتقديم المساعدات للدولة في جميع حروبها.

٤- تحافظ الدولة على هذه الاقاليم ضد الاعتداءات الخارجية.

٥- دفع الصدقات والرسوم الشرعية لبيت المال الخاضع لسلطان الدولة.

لقد سرى العمل بتنفيذ هذه المواثيق والبنود القانونية من قبل المؤرخ الشيخ البدليسي الذي وصفه المؤرخ الانكليزي كريسي Creasy بـ «صاحب القدرة الادارية العالية في تنفيذ القرارات» .

تعد البنود الآنفة الذكر : اول معاهدة تعقدها الدولة العثمانية بينها وبين الامارات والعشائر القبلية في بلاد الجزيرة الفراتية (= كردستان + شمال غربي

العراق) التي خضعت لها بعد حرب جالديران في عام ١٥١٤م، وقد جرى العمل بها تكتيكيا مرحليا من قبل الدولة في توظيف بلاد الجزيرة تلك، ضد الاعداء الخارجين (باعتبارها حاجزاً جغرافياً يفصل الاناضول عن الوطن العربي)، إذ سرعان ما نقضت الحكومة العثمانية شروط هذه المعاهدة ، بعد ان طبق السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠- ١٥٦٦م، النظام الاقطاعي / العسكري والذي بموجبه ظهرت التقسيمات الادارية على نحو جديد، وذلك بعد سيطرته على بغداد سنة ١٥٣٤م/ ٩٤١هـ.

أما بالنسبة للنظام الضرائبي ، فقد اتبع سليم الاول مخلصاً العرف العثماني القديم، محتفظاً به، وقد طبقه على الاراضي التي احتلها وأخضعها من يد الصفويين في شرق آسيا الصغرى، ومن المماليك في سوريا ومصر، وقد اتبع هذا الخط السلطان سليمان القانوني في البداية بما فعله في العراق، او في بعض امتداداته الحربية في هنغاريا*.

٢ / بلاد الشام :التقسيمات الادارية:

نجح السلطان سليم الاول قبل عودته إلى عاصمته اسطنبول بتقسيم بلاد الشام إلى قسمين واسعين : اولهما : شمال دمشق ومركزه الاداري حلب، وثانيهما جنوبي دمشق ويمتد حتى العريش ومركزه الاداري دمشق، وارتبطت به المراكز المدنية في فلسطين. ثم قامت السلطات العثمانية المختصة باجراء التنظيمات لبلاد الشام على اسس النظام الاقطاعي.

---

* انظر د. سيار الجميل، «دراسات في السيطرة العثمانية..» المرجع السابق ، القسم الثاني، ص ٣٣٥

وراجع التفاصيل في : سعد الدين خوجة، تاج التواريخ (بالتركية) ، اسطنبول ، جـ٢، ١٨٦٣، ص ٣٢٤، (وهو من اقدم المصادر العثمانية).

وانظر اراء المورخ كريسي في

E.S. Creasy, History of the Ottoman Turks, Vol I, London, 1854,p. 225.

وراجع ما كتبه المؤرخ النمساوي القديم فون هامر بورجشتال .

J.Von Hammer - Purgstall, Geschichte der Osmanischen Reiches, Band 2, (1453 1530) Wien , 1828.

قسمت بلاد الشام في عهد سليمان القانوني إلى (٢٥٦١) اقطاعا، منها (١٠٠٦) اقطاعات في ايالة دمشق التي ضمت: دمشق وصيداً وتدمر والكرك وغزة والقدس ونابلس وعجلون وصفد واللجون.. وتشير الوثائق العثمانية بان اراضي بلاد الشام كانت على شكل خمسة مصنفات هي:

١- الخواص الشاهانية، وهي الاملاك السلطانية.

٢- خواص المير لواء، وهي املاك حكم السناجق كاقطاعيات عسكرية.

٣ - الزعامات والتيمارات، وهي املاك الزعماء العسكريين المتوسطة والصغيرة.

٤- أراضي الوقفيات.

٥- أراضي الملك صرف.

تشير السجلات العثمانية بوضوح إلى أن تطبيق نظام الالتزام في بلاد الشام خلال القرن السادس عشر، قد اثر كثيراً في البنية الزراعية نتيجة للمكابدات التي عاناها الفلاح السوري من الملتزمين الذين غدوا في نهاية القرن الثامن عشر، يتمتعون مدى الحياة بالاقطاعات التي غدت تسمى «مالكانة» والتي بدت تشبه إلى حد كبير «الخواص». وقد اعدت الدولة العثمانية كل «ملتزم» جزءاً في كيانها، فاسندته بالادوات والوسائل من اجل تحقيق عملية جمع الضرائب، ومن ابرزها: استخدام الاسلحة والقوة باسم حماية اقطاعه وتوفير حالة الامن.

لقد جاءت اجراءات الدولة العثمانية بعد استطاعتها تحطيم الانظمة السابقة إثر اندحار دولة المماليك على ايدي العثمانيين. وقد وجدنا أن عناصر اقطاعية محلية او اقليمية قد اقتربت من القوى العثمانية المسيطرة والجديدة من اجل الحفاظ على مصالحها و مواقعها، فضلاً عما فعله خاير بيك وجان بردى الغزالي وامراء الساحل الذين انتظروا لمن ستكون الغلبة، فلما كانت للعثمانيين اصطفوا يناصرونهم، وانحازوا إلى طرفهم، فكافأهم العثمانيون ليس بالاقطاعات فحسب، بل باسناد الادارات الاقليمية (= السناجق) لهم *.

---

* من الاهمية ماجعة ما كتبه محمد كرد علي و أ. ن. بولياك واجراءمقارنة في المعلومات.

كان ذلك كله مبعثاً في تبلور التكوينات الاقليمية منذ القرن السادس عشر في بلاد الشام *.وقد عكست الاحداث التاريخية المتفاقمة، مظاهر متعددة في الصراع الاقطاعي الذي تأجج بفعل العصبيات الطائفية والعلاقات الاسرية والعشائرية.. وكان من اشهر تلك التكوينات الشامية الامارة المعنية في جنوبي لبنان وشمال صفد،والامارة الحارثية في قلب فلسطين خلال القرن السابع عشر.

٣/ مصر: نظام الالتزام وادارة المماليك:

أما في مصر فقد بدأ العثمانيون بترتيب وتنظيم الادارة فيها وفي صعيدها بعد ان خسرت مكانتها الاقليمية كدولة تحت اسم «السلطنة المملوكية»، وافتقدت ايضاً مكانتها الرمزية في العالم الاسلامي باعتبارها قد كانت حامية للخلافة العباسية في ظل المماليك. لقد تحولت مصر من دولة لها جيشها ومؤسساتها الى مجرد ولاية عثمانية لا تأثير واضحاً لمكانتها الجغرافية.

اصبح الوجه البحري مقسماً إلى سبعة أقاليم (بدلاً من اعمال)، أما الوجه القبلي فقد قسم الى ستة اقاليم تدين جميعها الى حاكم مصر خاير بيك الذي نصبه العثمانيون. وتمتعت ثلاثة موانيء هي الاسكندرية ودمياط والسويس بتبعية مباشرة للدولة العثمانية، في حين وقف على رأس الموانيء الاخرى «قبودان». وبعد ذلك،اصبحت مصر مقسمة الى خمسة اقاليم كبرى: اربعة في الوجه البحري، وواحد فقط للوجه القبلي. وكان يحكم الاقاليم الخمسة «بكوات» يحمل كل واحد منهم رتبة الصنجقية. وكان حكام الاقاليم يقيمون في القاهرة باستثناء حاكم جرجا عاصمة اقليم الوجه القبلي (جرجا) وينوب عن الصناجق اتباعهم «الكشاف» من المماليك. وهم حكام لـ(٢٤) كاشفية مستقلة عن الاقاليم.

وكانت الاقاليم مقسمة الى عدة مقاطعات تتكون بدورها من مدن صغيرة وقرى عديدة، وتدار المقاطعة اما من قبل ملتزم واحد أو عدة ملتزمين، وعادة ما يكونون من كبار الضباط العثمانيين،ثم دخل الى هذا الميدان التجار ورجال الدين ومشايخ العربان واصبحت غالبية الملتزمين من امراء المماليك.

---

* من الاهمية بمكان مراجعة ما كتبه عن «بلاد الشام في القرن السادس عشر» كل من المؤرخين: سوفاجييه وعبد الكريم غرايبه وليلى الصباغ ومحمد البخيت وعبد الكريم رافق.

اما الجهاز الاداري في مصر*. فقد تكون من حكام الاقليم ثم الصنجق أو الكشاف والاوجاقات العسكرية والوكيل والقائمقام.. أما ادارة القرى فكانت موكلة الى الملتزم، ويمثله القائمقام ومعه موظفون يختارهم، وهم: الشيوخ والشاهد والصراف والمشد والخفراء والوكيل والكلاف.. ويترأس إدارة الاقليم «بيك» يحمل رتبة الصنجقية، ويحصل على لقب «حاكم». وكان لكل اقليم اداري عاصمة سواء أكان ولاية أم كشوفية يقيم فيها «البيك» أو الكاشف حاكم الاقليم الاصغر.

كان حكام مصر -ايضاً- من امراء المماليك برتبة صنجق وحصل على لقب «البيك»، يعينون بفرمان من الباشا بناء على اقتراحات الامراء المحليين وموافقة السلطان العثماني. وتستوجب مهمة الحكام من بيكات الصناجق: جمع العوائد والضرائب التي يقررها السلطان على البلاد، ثم يقتطع منها ما يستوجبه الميري، وما يتبقى يكون من نصيبه... ومن سلطاته ايضاً: تطبيق العقوبات بالسجن والقتل، الى جانب سلطة فرض الضرائب الاضافية في اقليمه. وقد استمر هذا النظام فعالاً -فيما يبدو- حتى الربع الاول من القرن السابع عشر حينما بدأ تطبيق نظام الالتزام على نحو فعال.

ارتبط القاضي والقضاء المصري بقضاء عسكر افندي، ولم يكن ذلك القضاء نزيهاً في مصر، وحتى قاضي العسكر كان يرتكب الاخطاء مثل اخذ الرشوة. اما الكاشف، اي وكيل الملتزم في ارضه، فكثيراً ما كان يسيء التصرف فيستغل نفوذه باستيلائه على اراضي الغير.. وكانوا مكلفين باعادة الفلاح الهارب الى مصر.

كانت هذه باختصار هي احوال الادارة اللامركزية العثمانية- المملوكية قبل أن طبقت الدولة العثمانية نظام الالتزام في مصر منذ عام ١٦٥٨. لكن السؤال الآن، هو لماذا اعتمد العثمانيون على المماليك في ادارة مصر دون القضاء عليهم؟ نقول إن العثمانيين قد قضوا على دولة المماليك دون القضاء على حلقاتهم الاجتماعية، وقد كان لتاريخهم الطويل في حكم مصر الدور البارز والمؤثر في استفادة الدولة العثمانية منهم، خاصة وانهم كانوا مندمجين مع المجتمع المصري في المدينة والريف.. كما ان هناك ثمة انقسامات في البنية المملوكية- المصرية وخصوصاً،

---

* للتوسع أنظر ما كتبه عبد الوهاب بكر وهريدي وليلى عبد اللطيف.

التنازع على العرش، فضلاً عن التأرجح في المواقف المصرية ازاء التغيرات المملوكية- العثمانية.

٤ / العراق: الموصل وبغداد والتشكيلات الادارية ونظام السالیانة في البصرة

نجح السلطان سليمان القانوني أن ينظم الشؤون الادارية للعراق بعد أن سيطر على بغداد في ٣٠/ ١٢/ ١٥٣٤، وبقائه فيها حتى يوم ٣١/ ٥/ ١٥٣٥م أي قضى في العراق ستة اشهر كاملة عمل خلالها على فرض الأمن وإحلال النظام، وتحقيق الاستقرار، وتنظيم الادارة والضرائب، وباشر بتجديد المدارس والاضرحة والشوارع. وزار كثيراً من مدن العراق، وشجع الزراعة وعمل على فتح القنوات المائية... وأرسل محمد باشا الى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها، ثم نصّب حاكم ديار بكر السابق سليمان باشا الطويل أول وال عثماني من بغداد.

غدا العراق في عهد سليمان القانوني مقسماً الى خمس ولايات كبيرة، هي: ولاية بغداد وولاية الموصل وولاية شهرزور وولاية البصرة وولاية الاحساء. ووقف «الوالي» على رأس جهاز الولاية، وهو يتمتع بمنصب رفيع برتبة «بكلر بكى» ويلقب ايضاً بـ «مير ميران» أي (امير الامراء) بإعتباره يرأس امراء الالوية (= السناجق)، كما وأنه يعد أحد وزراء الدولة العثمانية، ويحمل طوغين أو ثلاثة أطواغ (الطوغ Tugh: شعار تركي قديم يتكون من راية بيضاء عليها خصلة شعر ذيل الحصان). ويحمل في اوقات الحرب، ولبكوات السناجق الحق في حمل طوغ واحد. أما البكلربيك (= رئيس البيكات) فإنه يحمل طوغين. أما من يكون بدرجة وزير عثماني من حكام الولايات الكبرى، فله الحق أن يحمل ثلاثة أطواغ.

أما إقطاعيا، فقد كان للولاة في العراق أن يحترزوا على إقطاعات كبيرة، وظفوها لخدمة مسؤولياتهم الضخمة، كما كان لولاة الموصل وبغداد فقط الحق في حضور جلسات الديوان السلطاني في اثناء وجودهم في العاصمة العثمانية إسطنبول. وكان من واجباتهم:

١- الدفاع عن اراضي واقطاعات الولاية او الولايات المجاورة من الهجمات الخارجية.

٢- ضمان استمرار ولاء سكان الولاية للدولة العثمانية.

٣- كبح جماح التّمردات أو الانتفاضات والثورات ضد الحكومة العثمانية.

٤- إعلام الباب العالي بكل الامور والمستجدات الداخلية والادارية والعسكرية إضافة إلى الاحوال الاقتصادية.

٥- تنفيذ الاوامر السلطانية في الاشتراك بالحملات العسكرية.

إن لكل ولاية جهازاً إدارياً متكاملاً قد يختلف في بعض وظائفه وخدماته عن جهاز إداري آخر في ولاية أخرى.. ويمكننا توضيح الجهاز الاداري لولاية الموصل- على سبيل المثال.. فهو يتألف من:

١- **الوالي**: وهو أعلى منصب إداري في الولاية، وهو حلقة الاتصال بين الاقليم ومركز السلطنة في العاصمة، وعادة ما كانت فترات الحكم قصيرة جداً، وعليه أيحمل رتبة «البيكلر بكي» كي يشغل هذا المنصب.

٢- **المتسلّم**: يأتي منصبه بعد الوالي في السلم الاداري، وهو «نائبه» أو الوالي وكالة في غياب الأول أو عزله أو سفره. ويتم تعيين «المتسلم» من قبل الوالي دون الرجوع الى العاصمة المركزية.

٣- **الكتخدا أو (الكخيا)**: وهو السكرتير أو المعتمد العام أو مدير المكتب الخاص، يعين لأغراض المساعدة في الشؤون الخاصة، سواء كانت سياسة أو عسكرية أم إدارية. عليه أن يكون راصداً قوياً لما يجري داخل الولاية، ويقدم معلوماته مباشرة ودورياً الى الوالي.

٤- **المكتوبجي**: وهو كاتب الرسائل والمذكرات الرسميّة لدى حكومة الوالي.

٥- **المهردار**: وهو حامل الأختام الرسمية لجميع الاوراق الرسمية للوالي.

٦- **الخزندار**: وهو أمين الصندوق أو الخزينة في الولاية.

٧-**السلاحدار**:وهو المسؤول عن الاسلحة والعدّة الحربية في الولاية.

٨- **إحتشامات أغاسي**: وهو رئيس التشريفات في قصر الوالي.

٩- **أمير آخور**: وهورئيس إصطبلات القصر في الولاية.

١٠- **الروزنامجي**. وهو كاتب الوقوعات اليومية في الروزنامات (=التقاويم).

وهناك مناصب أخرى الى جانب الوالي، تؤدي مهاماً سواء كانت ترتبط بالوالي مباشرة أم بالوزير الاعظم في العاصمة، مثل:

١- **الدفتردار**: أي المفتش العام في الولاية.

٢- **القاضي**: الذي يرتبط عادة بقاضي أناطوليا وينصّب من قبله.

٣- **المفتي**: منصب ديني يرتبط بـ «شيخ الاسلام» في العاصمة، وهو «فخري».

أما السناجق فإدارتها بسيطة يقف على رأسها:

١- **السنجق بيك**: وهو المسؤول الاعلى على الأمن والنظام والاحوال المالية ويساعده ملاك بسيط من الموظفين يقف على رأسهم:

٢-**الآي بيك**: وهو المسؤول عن السباهية (= الفرسان)، وتهيئتهم للحرب في الاقطاعات العثمانية.

٣- **الصوباشي**: وهو ضابط البوليس أو الدرك أو الشرطة الذي يعاونه جهاز أمني صغير من أفراد الشرطة.

ويمكننا القول بأن الدولة العثمانية قد عدت ولاية البصرة إحدى ايالات السالیانة المرتبطة بالوالي، وتابعة للخزانة الاميرية (= خزانة الدولة). أما تنظيم ايرادات ايالة السالیانة، فهو أن يقوم الوالي بجمع إيرادات الايالة المقررة شرعاً، ثم يستقطع مصاريف الوالي والسنجق بكية، وبقية المرافق الادارية في الولاية، وأخيرا يرسل المتبقى الى الخزانة المركزية في اسطنبول تحت إسم «ارسالية» أو «سالیانة»*.

---

* أنظر التفاصيل في: علي شاكر علي «التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر»، مجلة المؤرخ العربي، العدد(٢٧)، السنة (١٢)، بغداد، ١٩٨٦، ص ٨٤.

أما في بقية الولايات العراقية، فقد اعتمدت الدولة العثمانية على إيرادات اقطاعاتها التي سيطر عليها العديد من الاقطاعيين الكبار من خلال سيطرتهم على الارض بأصنافها الاقطاعية- العثمانية (الخواص/ والزعامات/ والتيمارات). ويذكر العديد من المؤرخين بأن ما يقدمه الاقطاعيون في كل الولايات للدولة يساوي نصف ايراداتها كاملة *.

٥/ بلاد المغرب العربي:

(١) **المقاومة البحرية** **: ظاهرة تاريخية بارزة في الصراع البحري بين أطراف متعددة على سواحل البحار الاستراتيجية خلال التواريخ الحديثة. وقد برزت على نحو فعّال وخطير في القرن السادس عشر والقرنين التاليين عليه. واستخدام «مصطلح القرصنة» من قبل المؤرخين الاوروبيين على نحو يسيء كثيراً الى الحقائق التاريخية الناصعة في صفحات تاريخ العرب الحديث.. في حين لم تكن المقاومة البحرية خاصة بالمغاربة أو الجزائريين أو التوانسة،، أو حتى بالاندلسيين الموريسكيين.

كانت عملياتهم الجريئة والقوية في الحروب البحرية عبر الحوض العربي من البحر المتوسط بمثابة ردّ فعل قوي تجاه القرصنة الاوروبية التي عرفتها دول اوروبا في مختلف البحار، وبخاصة الاساطيل الاسبانية والبرتغالية، فضلاً عن الفعاليات الغادرة لفرسان القديس يوحنا وجمهورية فينيسيا.

يقول المؤرخ الفرنسي بروديل- F. Braudel-: «لقد حلّ تاريخ القرصنة العام محل تاريخ الأمم والامبراطوريات»، في حين يقول ماسكاتري: «القرصنة مارسها الجميع سواء كانوا من الاوروبيين أم من المغاربة». ويعد تاريخ القرن السادس عشر هو تاريخ العصر الذهبي للمقاومة المغاربية والتونسية خاصة ولابد أن نوضح اسباب ظاهرة المقاومة المغاربية وعوامل نشوئها ونموها وتبلورها:

---

* راجع كتابات خليل اناجيك وستانفورد شو وهاملتون كيب وخليل ساحلي اوغلو وغيرهم في التاريخ الاقتصادي للدولة العثمانية.

** المقاومة البحرية أو الحرب البحرية هي التي اصطلح عليها بـ «القرصنة» في معظم المصادر التاريخية العربية والاجنبية

١- من الواضح أنه لا يمكن تفسير قيام المقاومة مع أساس الصراع التاريخي القائم عصر ذاك بين الشرق والغرب، فنمو المقاومة المغاربية بخاصة، يعود الى ظروف معينة. وإن القرصنة ظهرت في ظل وجود علاقات دولية تميزت بتفوق أوروبا (=الشمال) من ناحية، وإنحطاط المنطقة العربية (=الجنوب) من ناحية اخرى.

٢- ان المقاومة المغاربية قد اشرف على تنفيذها «الرياس» وهم فئة من الاتراك كانت دخيلة وطارئة على المجتمع العربي، وهم الذين سمحت لهم التعليمات العثمانية بتطوير عمليات المقاومة البحرية من خلال توليهم مقاليد الحكم في المغرب العربي. ويظهر - لنا- أنها لم تول أية عناية لتنمية الموارد المالية التي إكتسبتها من مصادر البحر.

٣- يمكنني أن أضيف عاملاً أساسياً آخر، ذلك أن ظاهرة المقاومة البحرية تعدّ البديل التاريخي لعمليات النزوح الموريسكية الكبرى من شبه الجزيرة الايبرية عبر البحر المتوسط لآلاف مؤلفة من السكان الذين كانوا يمتلكون أوطاناً قديمة عمرها قرابة ثمانية قرون، خاصة وأنهم كابدوا شقاء عميقاً حتى بعد إستقرارهم في المغرب العربي. فالمقاومة البحرية ردّ فعل موريسكي عربي مغاربي ضد تجاوزات أوروبا الكاثوليكية وإمتداداتها.

أما دوافع المقاومة البحرية*، فيمكننا حصرها على التوالي:

١- إنها تتماشى ونزعة رياس البحر الاتراك ضد اوروبا.

٢- كانت الانظمة الحاكمة المتعددة في المغرب العربي بحاجة الى الاموال منذ بداية تأسيسها في القرن السادس عشر.

٣- تدهور التجارة بسبب إنقطاع تجارة الذهب السوداني التي كانت عملياتها رائجة دوليا من خلال السودان الغربي.

ان ابرز من عالج تفصيلات هذا الموضوع كل من المؤرخ الجزائري احمد توفيق المدني والمؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي. انظر عبد الجليل التميمي. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين (CEROMDI)، زغوان، ١٩٨٩.

٤- حلول النقود الاوروبية وإنتشارها، وخاصة الاسبانية منها محل النقود المغربية، مما أثر تأثيراً بالغاً على تبلور ظاهرة القرصنة.

٥- إنتعاش القرصنة الفرنسية في عهد الداي عثمان، ويعلل ذلك بنزوح المرتزقة الذين كانوا يشكلون الاطار التقني الضروري.

٦- نزوح الاندلسيين- الموريسكيين الذين فروا بدينهم نحو السواحل المغاربية/ العربية، وكانوا ناقمين على الاسبان وذلك للممارسات القمعية ومحاكم التفتيش. الارهابية ضد المسلمين واليهود معاً.

٧- إن المغاربة العرب مارسوا عمليات بارزة في الحرب البحرية في ظروف اقتصادية وسياسية صعبة ومعقدة، فقد كان هناك صراع بين الشمال والجنوب في التجارة الدولية.. وكان هناك تسابق في المصالح الاقتصادية، فقد منع التجار المسلمون من حق الملاحة في البحر على حساب التجار الاوروبيين. وقد قال احد القناصل الافرنسيين يوماً: «إن تجارة مرسيليا إنما تتوقف على القضاء المبرم على تجارة المغاربة..».

٨- في ظل تلك الظروف التاريخية التي رافقتها تحولات كبرى في العالم فقد تحولت «الحروب البحرية» الى شكل من أشكال جمع الثروة، ووسيلة من وسائل عيش المغاربة.

٩- أصبحت القرصنة- فيما بعد-، وسيلة ضغط في أنظمة الحكم المغاربية لحمل الدول الاوروبية التي لا تعترف بالحكومات والادارات المغاربية.

١٠- وهناك دوافع اخرى، أبرزها: الدافع الديموغرافي بتنامي عدد السكان في منطقة المغرب العربي، وبشكل كبير دفع بالمدن الساحلية أن تغدو مراكز إمتداد جغرافي عميق في البحر المتوسط.

(٢) دايات تونس ١٥٩١- ١٦٤٠م والتركيب التاريخي:-

انتصرت حملة سنان باشا لكي تؤدي نتائجها في سنة ١٥٧٤م الى انهاء الوجود الاسباني من السواحل التونسية، واسقاط نظام الحكم الحفصي والدولة

الحفصية. فتحولت تونس تاريخياً الى ايالة عثمانية مهمة من ايالات الدولة المتعددة بعد ان ورثها الحفصيون جملة من التقاليد السياسية والاعراف الاجتماعية. وقد نصّب في حكم تونس قائد عسكري برتبة «باشا» له إشرافه على الجيش الانكشاري الذي بلغ عدده اربعة آلاف جندي. ويقف على رأس الجيش قائد برتبة «الآغا»، وقسم هذا الجيش الى عدد كبير من الفرق العسكرية، وقف على رأس كل فرقة ضابط برتبة «داي».

سيطر الجيش العثماني على جميع المناطق التونسية لاقرار الامن والنظام، وترسيخ نظام حكم جديد من خلال فعاليات الجيش الانكشاري. وانتشرت في المواني البحرية قطعات اسطول بحري عثماني يرأسه «قبطان ريّس» الذي كان يشرف على كبار الضباط وكانت له مهمة الفصل في شؤون الجيش، وادارة الولاية، وتنصيب «الباشا» ضمن مهام هيئة عليا اطلق عليها «الديوان».

خلال هذا العهد، كانت تونس تابعة للادارة العثمانية في الجزائر، وقد بقيت على تلك الحال حتى سنة ١٥٩٠م، إذ انفصلت، واصبحت، تحت حكم الباشوات الذين ينصبهم الباب العالي، والى جانبهم «الدايات» المختارون من قبل الجيش الانكشاري ولقد بلغ عهد الدايات اوج قمته من حيث سموالمكانة والتصرف المطلق، والقوة في البر والبحر، وقام الدايات باعمال خطيرة جسدتها ظاهرة «القرصنة» وخاصة في عهد اسطا مراد داي.

لقد دام عهد الدايات في تونس للفترة ١٥٩١-١٦٤٠م، متميزاً بانتقال السلطنة الفعلية من الباشا والديوان الى «الدايات» الذين كانوا على رأس الفرق العسكرية- الانكشارية. ويعود هذا الانقلاب في النظام المحلي الى جملة من الاسباب التاريخية، هي:

١- شعور الدايات بنفوذ متزايد بسبب تحكمهم من الطائفة العسكرية- الانكشارية، وبسبب مأموريتهم وخدماتهم الكثيرة في جمع الضرائب، والحفاظ على الأمن والاستقرار في كل من المدن والمقاطعات.

٢- لقد نجح الدايات كفئة لها امتيازاتها في اجهزة النظام ان تتحالف مع الجند الموالي لهم، من خلال منح الرواتب والعطايا.

٣- استبداد الباشا والسلطات النافذة للديوان في الحكم المطلق.

تأثر الدايات بما كان يجري في الجزائر من احداث سياسية، حيث كانت طائفة الانكشارية هناك قد قلبت نظام البايلر بيكات.

هذه هي بعض الاسباب التي بدأت تونس من خلالها تستحوذ على شخصية عثمانية لها، ولكي تتميز عن الايالة الجزائرية ببعض الخصائص، وإلى غاية ١٥٩٠م كانت ايالة تونس تابعة للجزائر، لكي تغدو بعد تلك السنة تابعة للاستانة تبعية مباشرة، لكي يأخذ التاريخ الحديث لتونس له مساراً آخر.

ويمكننا ان نوضح- هنا- أن الايالة التونسية قد مرّت باربعة عهود تاريخية اساسية، في تكوينها الاجتماعي والاقتصادي الحديث ومن خلال علاقاتها المتميزة بالعثمانيين الذين وفروا لها مناخاً له سماته وخصائصه من التفاعل الاقليمي بازاء الايالتين الماجورتين: طرابلس الغرب شرقاً والجزائر غرباً، وحركة الاتصال باروبا شمالاً سلباً أم ايجاباً... ان العهود العثمانية التي مرت بها تونس العثمانية تعد بمثابة انساق تاريخية لها، وكان العهد الاخير بمثابة قاعدة تاريخية ترسخت من خلالها النزعة الوطنية- التونسية ضد نظام الحماية الفرنسية حتى الاستقلال وإعلان نظام سياسي جديد عام ١٩٥٧ يقوده الحبيب بورقيبة وتحت اعلان «الجمهورية التونسية»، والعهود التاريخية، هي:

١- عهد الباشوات ١٥٧٤- ١٥٩٠م.

٢- عهد الدايات ١٥٩١- ١٦٤٠م.

٣- عهد الاسرة المرادية ١٦٥٩- ١٧٠٥م.

٤- عهد الاسرة الحسينية ١٧٠٥- ١٩٥٧م*.

---

* التفاصيل في: د سيّار الجميل «نظام الادارة العثمانية اللامركزية في الولايات العربية...»، بحث مقدم الى المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية، تونس، ١٩٩٠.
وانظر ايضاً -

Robert Mantran "Evolution des relations enter la Tunisie et lempire attoman du 16 au 19 siecle " Cahiers du Tunisie, 2 et 3 trim. 1959.

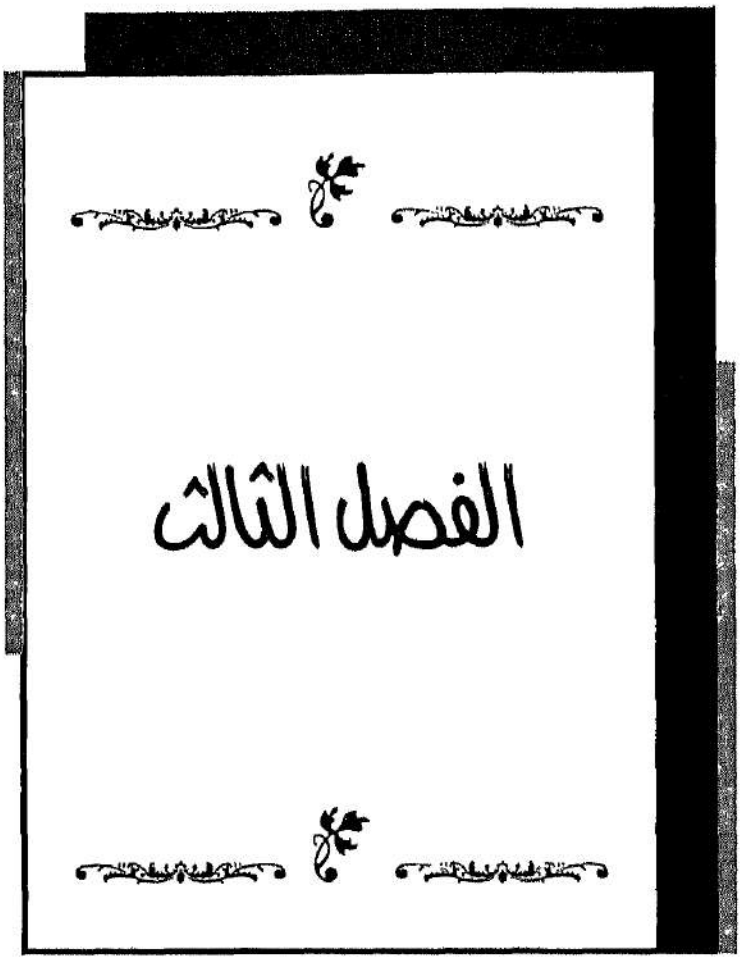

الفصل الثالث

٣ الفصل الثالث

بقايا النظام التاريخي العربي الوسيط واثره في البنية العربية الحديثة

مفهوم الدواخل والاطراف:-

لقد اهتم العرب بالعثمانيين باعتراف معظم المؤرخين العرب، ومنهم: ابن اياس وابن زنبل والمحبّي والنهروالي والمرادي والعمري وغيرهم - وأطلقوا على السلطان سليم الاول لقب «خادم الحرمين الشريفين» ، وهو السلطان العثماني الذي قضى على نظام الخلافة المتمثل برمزه الروحي في القاهرة المملوكية ١٥١٧م. وكانت الخلافة العربية قد افتقدت مضامينها السياسية قبل ذلك بثلاثة قرون على يد السلطان التركي في دولة بني العباس.

هكذا، نستنتج ان هذا الحدث التاريخي يمثل البداية الحقيقية لتاريخ العرب الحديث، اذ تبلور ذلك من خلال تاريخ الارتباط بالمركزية - العثمانية في اسطنبول، وليس من خلال الارتباط بتاريخ اوروبا الحديث الذي بدأ مع حدث عثماني ولكن من نوع آخر، ذلك هو فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م. وفضلاً عن ذلك، فان المركزية العثمانية قد جاءت تطبيقاً لبنود القوانين التي اصدرها السلطان سليمان القانوني ضمن «نظام اقليم الشرق» والتي كرست الممارسات الادارية والاقطاعية العثمانية الصعبة في المجتمع العربي . ومن هنا ندرك كم كانت التنظيمات الادارية والقانونية العثمانية مؤثرة في البنية العربية التي لم تألفها عبر تاريخها الاسلامي الطويل .

لقد رسمت بنود قوانين نظام الشرق خارطة البيئة العربية على نحو جديد، لم تألفه القرون السابقة، وبخاصة في الدواخل المنحصرة بـ: العراق وسوريا

والحجاز ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر (ماتبقى من البيئة العربية فهو اطراف)، والتي عاشت هيمنة حكومية عثمانية - ادارية، في حين عاش كل من لبنان واليمن وشهرزور فضلاً عن اللواحق الجغرافية بالاقاليم المهمة (أي لواحق الدواخل) تخلخلاً عثمانياً. وبقيت الاطراف الجغرافية البعيدة مستقلة استقلالا كاملاً عن العثمانيين كسلطنتي المغرب ومسقط / زنجبار، اذ انحسرت بهما وبعض الاطراف الاخرى كحضرموت والصحراء الكبرى والسودان بقايا النظام العربي (الديني او القبلي) القديم. اما البنية الشريفية في مكة، فقد اعلنت عن ولائها للعثمانيين وتحالفها معها دون استقلالها، فكانت اشبه بنيابة عثمانية كتلك النيابات العثمانية التي زرعها العثمانيون في شرقي اوروبا. مع فارق واحد ذلك هو ما اكتسبه اقليم الحجاز من قيمة مقدسة واجلال وتعظيم من البلاط العثماني.

ولا بد ان نتوقف قليلاً لتوضيح الفوارق الجيو تاريخية بين الدواخل العربية والاطراف الجغرافية المنتشرة حواليها. فنقول

إن الدواخل العربية تتميز بتضاريسها الجغرافية السهلية الصالحة للزراعة الموسمية، وذلك لوفرة مياهها، وكثافة سكانها، وانتشار المدن وقصباتها، فضلاً عن امتداد المسالك التجارية التي ترتبط واحدتها بالاخرى عبر المدن العربية ناهيك عن رصيدها الحضاري والاقتصادي في ابرز حواضرها التاريخية التي كانت مراكز اقليمية قديمة، او اسواقاً تجارية ضخمة، او موانئ استراتيجية تربط الشرق بالغرب، او الشمال بالجنوب. وقد ارتبطت الاطراف بها ارتباطاً مصيرياً من اجل الحياة.. لقد كرّست السيادة العثمانية نفسها على الدواخل العربية التي ذكرناها آنفاً ..

اما الاطراف، فتشكلها جغرافياً وجيولوجياً كل من نجد والجزيرة الفراتية والربع الخالي والدهناء والهفوف والصحراء الكبرى وموريتانيا والسودانيين الشرقي والغربي وارتيريا والصومال والسواحل الخليجية وحضرموت وعمان وعسير والجزر العربية والصحراء المغربية ..

ان كلاً من الدواخل والاطراف العربية* محاطة بأحزمة جبلية وبحرية تفصلها عن العوالم الجغرافية الاخرى، فسلاسل جبال طوروس وانتي –طوروس وزاكروس والخليج العربي كلها فواصل بين الوطن العربي وبين تركيا وايران. اما البحر المتوسط والمحيط الهندي والبحار العربية، فانها تفصل الوطن العربي عن الهند وسيلان واوروبا .. في حين تفصل الصحاري الكبرى الافريقية الوطن العربي عن افريقيا الاستوائية.

لقد ترسّبت في البيئة العربية خلال القرون الخمسة المتأخرة بقايا النظام التاريخي العربي القديم ، والذي بقيت تبرزه نماذج مختلفة من الكيانات على شكل «سلطنة» ام «امامة» ام «شرافة» ام «مشيخة» ام«مملكة» ..على الاطراف العربية.. ويمكننا ان نبرز اربعة نماذج تاريخية عربية اساسية في تاريخ العرب الحديث، وتوضيح طبيعة علاقاتها – باختصار – ازاء العثمانيين الذين حكموا الاقاليم المهمة في الدواخل العربية، والنماذج هي ·

١· اشراف مكة في الحجاز: سلالة شرافة دينية مقدسة تحالفت مع العثمانيين.

٢· اليعاربة والبوسعيد في مسقط: امامة اقليمية مذهبية تهادنت مع العثمانيين .

٣· السعديون والعلويون في المغرب الاقصى : سلالة شرافة سلطانية عربية مستقلة عن العثمانيين .

٤· الأئمة الزيديون في اليمن: امامة مذهبية سلالية متصارعة ضد العثمانيين .

فضلاً عن نماذج متعددة اخرى صغيرة ومنتشرة على الاطراف العربية، وفي بيئات مختلفة، عاشت حياتها ضمن اطارات من السنن السلطوية المنعزلة او المستقلة او المتعايشة في علاقاتها مع العثمانيين. وقد تميزت بتوارث تلك السنن

---

* من اجل تفاصيل عن هذه النظرية، انظر : سيّار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر، مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٨٩، ص ٣٥٦–٣٦٢.

حضرية كانت ام بدوية منذ العصور الوسطى. وعلى الرغم من التوتر المستمر في اقتصادياتها ووحداتها الاجتماعية، كونها تعرضت الى المزيد من المحن والكوارث الطبيعية (= فيضانات / اوبئة / مجاعات ..) فانها كانت متخلصة من الحالات الغربية التي عاشتها الدواخل العربية تحت حكم السيطرة العثمانية. ولا سيما ممارسات النظم الاقطاعية العثمانية عسكرياً واقتصادياً .. فبقيت تتوارت النزعات العربية، وفي حين انهمك اشراف مكة بالقضايا المحلية لشؤون الحج، ومشكلات عدة تختص بالطبقة والانقسام والسلطة.. عاش اليمن معضلة صراع تاريخي طويل الامد ضد السيطرة العثمانية من اجل البقاء والحياة.

إن عناصر التشابه والتجانس تميز طبيعة بقايا النظام العربي القديم في ظواهره وبنيوياته، ولكن « ..ثمة تغييرات تحكم طبيعة دواخله، إذ لا يمكن قياس حالات عاشها «الاشراف» في مكة، بالنظام السياسي المستقل الذي تطّور تاريخياً في ظل الهيئتين السعدية والعلوية في حكم المغرب الأقصى. وهذا ينطبق ايضا على نظام«الائمة» في اليمن، وهو نظام سياسي قديم ينتمي الى العصور الوسطى . ومن الغرابة بمكان ان نموذج النظام العربي القديم بقي يتمتع بشرعيته وممارسة سلطاته على الاطراف الجغرافية للمنطقة العربية، في حين انه مات في الدواخل العربية منذ عهود طويلة .. ومن الطريف جدا ان نجد مستحدثات هذا «النظام» العربي باقية حتى يومنا هذا»*.

ولنتوقف قليلاً لدراسة بعض النماذج التاريخية – العربية في الاطراف .

١. بلاد اليمن : الأهمية التاريخية والجغرافية:- **

ارسل امير اليمن مبعوثه إلى السلطان سليم الاول اثر السيطرة العثمانية على مصر عام ١٥١٧م، وقد حمل المبعوث الهدايا لابداء الودّ والصداقة. وعليه، فقد تتابع سقوط اليمن العثمانية من جراء سقوط دولة المماليك التي كانت تهيمن على

---

* د. سيّار الجميل ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢-٢٠٣.

** من الأهمية بمكان ان نذكر بأن تاريخ اليمن الحديث (الامامي × العثماني) هو تاريخ معقد وغني بالاحداث وغزير بالمعلومات المهمة التي تتطلب من المؤرخين العرب دراستها والبحث فيها مطولاً.

اليمن اولاً ، وبسبب نفوذ الاساطيل البرتغالية في البحار الشرقية والبحر الاحمر خصوصاً ثانياً، فكان على كل من نظامي اليمن والحجاز ان تحميهما القوة العثمانية الاسلامية بعد ان هدّد البرتغاليون مدينة جدة سنة ١٥٠٥م / ٩١١هـ. وبدأوا بتهديد مدينتي مكة والمدينة، فكان ذلك مدعاة اساسية لاهتزاز الكيان العربي الاسلامي، وقد ضاعت سدىً مناشدة دولة المماليك في مصر قبل سقوطها بيد العثمانيين، فكان التدخل العثماني بمثابة النجدة التاريخية لدرء الاخطار الغربية – البرتغالية. ورفع العثمانيون لواء الحرب ضد البرتغاليين الذين كانوا قد تحالفوا مع بعض الاطراف في العالم الاسلامي، ومنها : الدوُلة الصفوية في ايران التي كان صراعها قد استفحل ضد الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الاول والشاه اسماعيل الصفوي .. فضلاً عن اهتمام الدولة العثمانية بالبحر الاحمر... وكانت تلك هي احدى الوسائل البارزة في معالجتها للمشاكل الاقتصادية التي بدأت مصر تعاني منها، بعد ان تحولت طرق التجارة الشرقية عنها اثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

يتمتع اليمن بموقع استراتيجي فعّال خلال التواريخ الوسيطة والحديثة، وكان لا بد ان تبرز اهميته البالغة لكي يستفيد العثمانيون منه سياسياً واقتصادياً، وفضلاً عن جعله منطقة دفاع استراتيجية في جنوبي الامبراطورية العثمانية شاسعة الاطراف، لا سيما وانه يطلّ على البحار الشرقية، ويستفاد كثيراً من مضيق باب المندب في التعامل مع الشرق والغرب .

فالسيطرة على اليمن تضمن للعثمانيين سلامة الحرمين الشريفين في الحجاز، والتحكم في البحرين : الاحمر والعربي، والاشراف على البحار الشرقية، اضافة الى جعله : قاعدة استراتيجية ضد القوى البرتغالية والصفوية، كمحطة اتصال في التعامل مع اجزاء العالم الاسلامي في كل من اعماق اسيا وافريقيا.

١ / الحملة العثمانية على بلاد اليمن «ومبرراتها» :

تمكن العثمانيون من فرض سيطرتهم على اليمن التي أعلن امراؤها تبعيّتهم اثر سقوط القاهرة عام ١٥١٧م، إلا ان بعضاً من القادة المماليك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثماني ، وخرجوا عن طاعته ، واعلنوا استقلالهم، وبدأوا بتهديد الولاة

الاتراك الذين تولوا الحكم العثماني لليمن، ولم تكن هناك قوة عسكرية للرّد على التهديدات المحلية، فما كان منهم الا الفرار من اليمن. ولم ينفع تنصيب الدولة العثمانية لبعض القادة المماليك حكاماً على اليمن باسم السيادة العثمانية. فوجدت الدولة ان خير سبيل لضمان تبعية اليمن واكتسابها فعلاً، هو اسلوب الاحتلال العسكري، وتأسيس حكم عثماني بقوة السلاح. وقد استمر الحكم العثماني الاول على اليمن للفترة ١٥٣٨-١٦٣٥م، اي قرابة قرن كامل من التاريخ العربي الحديث.

لقد أمر السلطان سليمان القانوني بتجهيز حملة عسكرية ضخمة أبحرت سفنها من ميناء السويس في ٢٧ حزيران / يونيو ١٥٣٨م، بهدف القضاء على البرتغاليين الذين كانوا يغيرون على المدن الساحلية العربية وموانئ البحر الاحمر والبحر العربي ويهددونها. وصل الاسطول العثماني الى عدن في اواخر شهر تموز/ يوليو ١٥٣٨م بقيادة سليمان باشا الارناؤوطي، أحد ابرز القادة العثمانيين الذي غدر بأمير عدن الذي ابدى استعداده للتعاون مع العثمانيين ضد عدوه الامام شرف الدين الزيدي الذي كان يحكم قلب اليمن وله اطماع في عدن.. وسيطرت القوات العثمانية على عدن دون قتال في ٣ آب / اغسطس ١٥٣٨، وقضى سليمان باشا على الاسرة الطاهرية الحاكمة باعدام جميع افرادها بقسوة، ومصادرة املاكهم واموالهم بحجة تعاونهم مع البرتغاليين ومحاولتهم تسليم عدن اليهم، وهي تهمة نفاها عدة من المؤرخين فيما بعد. ونصب سليمان باشا احد ضباطه واسمه «بهرام» على ادارة عدن، ومضى باسطوله نحو الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين، ولكنه فشل في حملته، وعاد الى عدن منسحباً. اما حضرموت، فعلى الرغم من امتداد العثمانيين الى سواحلها وثغورها، فان سكان المناطق الساحلية رفضوا الحكم العثماني ولم يعترفوا بالولاء للسلطان العثماني، فعادت القوات العثمانية الى عدن ايضاً. وهكذا ايضاً، اعلنت تبعية مخا للدولة العثمانية، وسيطرت على الصليف ومنها تقدم الاتراك نحو زبيد، وغدروا بالحاكم المملوكي واعدموه مع رفاقه، فقضوا على الحكم المملوكي في اليمن نهائياً.. فما ان جاءت نهاية سنة ١٥٣٨م/ ٩٤٥هـ حتى خضعت اليمن خضوعاً تاماً وفعلياً للسيادة العثمانية

ويبدو للدارس والمؤرخ ان الولاء الذي صدر عن اليمن للسلطان سليم الاول لم يكن يمثّل إرادة اليمنيين بالقبول تجاه الامتداد العثماني، بل مثّل إرادة الحكام الاقليميين. ولكن إذا كان العثمانيون قد إستطاعوا إيقاف التوسّع البرتغالي في البحر الاحمر فإنهم قد أخفقوا في تحطيم السيطرة البرتغالية في البحار الشرقية، وتامين المسالك البحرية الاستراتيجية أمام التجار العرب الدوليين في تلك البحار الشرقية باتجاه الهند وجنوبي شرق آسيا. وكانت هناك ثمّة أسباب تقف وراء ذلك الاخفاق المرير:

١. الاهمال العثماني في إستخدام القواعد الاستراتيجية في البحار العربية، ومنها الجزر والسواحل الافريقية.

٢. عدم وجود تآلف عثماني- عربي لصدّ التوسّع البرتغالي نتيجة للقسوة التركية التي إستخدمها القادة العثمانيون الذين تابعوا سياسة الغدر والعنف والقسوة تجاه اليمنيين.

٣. الاعتماد على حوض البحر الاحمر فقط في صدّ التحدي البرتغالي دون الاعتماد البحري أيضاً على كامل حوض الخليج العربي لإقامة توازن إستراتيجي بغية تطويق الاطماع البرتغالية.

٢/ تطوّرات الاحداث والحملة العثمانية الكبرى:

لا بد للدارس المؤرخ أن يقف مندهشاً أمام تاريخ اليمن الحديث الذي إمتلأ بأغرب الانتفاضات العنيفة ضد العثمانيين، ومقاومة السكان العرب الضارية للولاة وسياساتهم القاسية. وعليه، فإن الاتراك لم يبقوا سوى قرن واحد وللفترة ١٥٣٨-١٦٣٥م، ثم تركوا اليمن ليعودوا إليه مرة أخرى بعد قرابة قرنين ونصف القرن من الزمن، أي في منتصف القرن التاسع عشر وليحكموه كولاية بإدارة عثمانية - مركزية قرابة نصف قرن للفترة ١٨٧٢-١٩١٨م.

السؤال الآن: كيف نفسّر طبيعة العلاقة السلبية بين اليمن والعثمانيين خلال المرحلة التاريخية الاولى؟

بعد السيطرة العثمانية على عدن في ٣ آب ١٥٣٨م، ثارت القبائل اليمنية على الحامية العثمانية إنتقاماً لمقتل أميرها عامر بن داؤد الطاهري. وقد سبّبت الاحداث الدامية تلك قلقاً عثمانياً حدا بالباب العالي أن يرسل إسطولاً بحرياً عبر البحر الأحمر تحت قيادة بيري ريس الذي تمكن بسهولة من استعادة عدن بعد إخماده لثورة القبائل، في حين أقيل سليمان باشا عن منصبه، ورجع إلى اسطنبول، وأسندت ولاية اليمن لمصطفى غزة الذي إتخذ مدينة زبيد عاصمة لولايته*، وأرسل نوابه الى كثير من قسمات اليمن.

إستطاع العثمانيون ان يتوسّعوا في أجزاء اليمن منذ عام ١٥٣٩م، وكان الاصطدام بينهم وبين الامام الزيدي شرف الدين، وبعد معارك عدة، سيطر العثمانيون على تعزّ سنة ١٥٤٥م، ثم سقطت مدينة صنعاء التي كان السيطرة صعبة عليها، بسبب موقعها بين الجبال التي اتخذها الأئمة الى جانب مدن أخرى محطات للتحرك الزيدي المناوئ للعثمانيين، فقد إكتسب الأئمة شعبية واسعة في اليمن ضد حكم الاتراك الغرباء الذين إختلفوا عن أبناء اليمن كثيراً. وقد إستخدم العثمانيون أساليب متعددة في التفرقة والشقاق.

شهدت اليمن وعاصمتها صنعاء بالذات سنة ١٥٤٧م، وقائع دموية وفظائع كثيرة إثر سقوطها بيد العثمانيين الذين استعصت عليهم طويلاً، فتوطّد مركزهم، ونصّب عليها الوالي «أزدمر» الذي أنعش الاقتصاد قليلاً، وخفف الضرائب كثيراً، ولكن مقاومة الامام المطهر للعثمانيين لم تضعف، بل نجح في فرض حصار إقتصادي على صنعاء بقطعه لخطوط التموين عنها وعن مدن أخرى. وتمكّن المطهر من دخول صنعاء في سنة ١٥٦٨م، بعد أن عقد صلحاً مع العثمانيين الذين انسحبوا بموجب الاتفاق المبرم الى زبيد وسهول تهامة.. وعلى الرغم من الحملات الامامية على زبيد قصد إخراج العثمانيين منها، فإنها جميعها باءت بالفشل.

---

* للاتسزادة، انظر: قطب الدين المكي النهر والي، البرق اليماني في الفتح العثماني، السعودية، ١٩٦٧

وجاءت الحملة العثمانية الكبرى بقيادة سنان باشا ضد الامام المطهر، وهي مزّودة بالاسلحة القوية ، وكان سنان باشا يعد من أبرز قادة الامبراطورية العثمانية التي كانت قد وصلت إلى أوج قوتها ، وله جهود حربية وإدارية مشهودة خلال عهد سليمان القانوني، كما وانضمت الى حملته قوات عثمانية كانت مرابطة في مصر .

وقد اطلق على سنان باشا فيما بعد لقب «فاتح اليمن» الذي نزلت قواته في زبيد، وبدأت بالزحف تجاه مواقع قوات المطهر ، فدار اكثر من معركة ضارية، إستطاع سنان باشا أن يقهر مراكز خصمه بمدافعه القوية! واستعاد العثمانيون صنعاء في سنة ١٥٧٠م، بعد مغادرة المطهر الى الجبال بحّجة إشفاقه على أهاليها من مكابدات الحرب أو أهوال الحصار، فحقق العثمانيون نصراً كبيراً برغم أنهم لم يتمكنّوا من التوسّع شمال مدينة صنعاء وذلك للمقاومة الشديدة التي دامت سنتين، والتي انتهت بوفاة الامام المطهر في ١٥٧٣م، والتي منحت العثمانيين فرصة للامتداد والتوسع ، إذ تمّ الاستيلاء على مراكز وقلاع عدة، وقضوا على مركز الامامة الزيدية في صعدة، فانهارت بذلك حركة المقاومة اليمنية لحين من الوقت. على أن القتال سيعود من جديد بتولي الامامة المنصور القاسم بن محمد الذي اشتهر بمعاركه ضد العثمانيين ولكن إستطاع العثمانيون من محاصرته ، وأسر إبنه محمد وبعض أقاربه*.

٣/ العثمانيون في اليمن بين السيطرة والتحدي :

لقد عاشت اليمن حالة صراع اقليمي ومحلّي ضد العثمانيين، وقد حمل راية الصراع الائمة الذين كان حكمهم قد ترسّخ على مدى قرون طويلة. وقد ظفر بعض الولاة بتقدير من أبناء الشعب اليمني، فقد حكم محمد باشا الوالي العثماني اليمن خلال عام ١٦١٧م، وإتصف بإدارته الكفوءة في سبيل مصلحة الاقليم الذي يحكمه، وقد حاول أن يوفّق في مساعيه بين الدولة العثمانية التي يرتبط بها إدارياً،

---

* للتفاصيل ، انظر : د. محمد عيسى صالحية، «وثائق جديدة عن حملة سنان باشا الى اليمن سنة ٩٨٦هـ/ ٦٨-١٥٦٩م» حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثامنة ، الرسالة (٤٢)، ١٩٨٦/ ١٩٨٧م، ص ١١-١٤.

وبين نظام الأئمة الزيدية الذي كان يمثّله الامام المنصور القاسم بن محمد في اليمن.. ولكن لم تستقر الاحوال غير سنة واحدة حتى إندلعت الحرب بين الطرفين من جديد. وقد أحرزت قوات الامام القاسم بقيادة ولديه الحسن والحسين إنتصارات على العثمانيين مسيطرة على معظم الاطراف الشمالية من اليمن، مما يدّل على أن روح المقاومة اليمنية ضدّ الاتراك كانت قويّة وفعالة، وفشلت المساعي الدوبلوماسية التي أرادها محمد باشا، ولم تطبق بنود الصلح بين الطرفين، تلك التي نصّت على أن الدولة العثمانية أقّرت بموجب ذلك الصلح للأئمة بما لهم من بلاد وأقاليم لمدة عشر سنوات مقابل الاعتراف منهم بسيادتها في بلادهم.. ونصت أيضاً على أيقاف القتال بين الجانبين، ومنع التدخلات العسكرية العثمانية في المناطق الشمالية. يقول المؤرخ العرشي وهو يمني زيدي منصف بأن محمد باشا كان «ممن أحسن الرياسة، وأدرك السياسة، وعامل بالعدل الرعية، وتفقّد أحوال المتمسكين بالسلطنة العثمانية»*.

وقد دعم العثمانيون نفوذهم في مناطق يمنية اخرى كزبيد وعدن، وكانوا يواجهون سلسلة من الهجومات القوية التي كان يقف وراءها الامام المؤيد محمد بن القاسم بعد إستحواذه على منصب الامامة إثر وفاة ابيه، مستولياً على أصقاع البلاد اليمنية رغم وصول حوالي عشرة آلاف جندي عثماني من مصر عن طريق الحجاز، لدعم الحامية العثمانية في اليمن، وتوفير حالة الاستقرار. وقد إستطاع الامام المؤيد ان يسيطر على جميع مدن تهامة دون الوصول الى المدن التي كان العثمانيون يستقرون فيها كزبيد ومخا وموزع والتي توزعت فيها قواتهم العسكرية.

لقد وجد العثمانيون أنفسهم وجهاً لوجه أمام مقاومة عربية عنيفة في اليمن، ونزاعاً مسلحاً مستمّراً، واستياءً عاماً من أبناء اليمن الذين شكلوا بتحالفهم الثنائي ضد العثمانيين جداراً قوياً. فقد تحالف الزيديون الذين كانوا يتخذون

---

* انظر: حسين بن احمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تحقيق الاب انستاس ماري الكرملي، مطبعة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩، ص ٦٢ ـ ٦٣.

المناطق الجبلية مواقع ممتازة لعملياتهم في الكّر والفر، فضلاً عن جعلها مأوى يوفر الامن لهم، تحالفوا مع أخوانهم في تهامة برغم الاختلاف بين الطرفين.

خسر العثمانيون في تلك العمليات المزيد من الارواح والاموال ، وذلك لعدم قدرة قواتهم على مجابهة حرب العصابات وفي مناطق جبلية صعبة، فضلاً عن أن إمكاناتهم قد ضعفت خلال القرن السابع عشر من خلال ضعف حكمهم الاقليمي لمصر في منتصف القرن المذكور.. ناهيك عن تدهور نفوذهم في البحار الشرقية، وضعف مصالحهم الاقتصادية في البحر الاحمر نتيجة إستخدام رأس الرجاء الصالح في العلاقات التجارية – الدولية، فما دامت مصالحهم قد افتقدت الى درجة كهذه، فليس من المعقول البقاء في ولاية بعيدة قصيّة في أعماق شبه الجزيرة العربية لا سبيل للوصول اليها الا طريق البحر، وهي تبعد قرابة الفي ميل، مما يصعب وصول الامدادات، فقد بدأ اليمن يشكّل عبئاً ثقيلاً على كاهل الدولة العثمانية..فبدأت تفكّر في أن تجلو قواتها عن أراضي اليمن، سيما وإن المنافسة البرتغالية بدأت تهدأ في البحار الشرقية، فضلا عن أن الدولة الصفوية كانت قد إحتلت العراق منذ عام ١٦٢٣م.

كان جلاء القوات العثمانية عن اليمن قد تّم في سنة ١٦٣٥م خلال عهد السلطان مراد الرابع ١٦٢٣–١٦٤٠م؛ ويبدو أن قرار هذا السلطان القوي كان صائباً ، إستجابة للتحديات التي فرضتها اليمن على الدولة العثمانية، ناهيك عن الظروف الصعبة التي عاشتها ابان مرحلة توسّعها التاريخي الكبير. كان الجلاء العثماني عن اليمن قد تّم في منتصف الثلاثينات من القرن السابع عشر بفعل الضربات الموجعة لقوات اليمن المحلية بقيادة الامام المؤيد محمد بن القاسم، إذا إستطاعت أن تصل قواته المتمرسّة أبواب صنعاء في سنة ١٦٣٥م، وبدأت تحاصر القوات العثمانية بقيادة أخيه الحسن.. وفتحت الابواب العالية لصنعاء ، فالتحم الجانبان في معركة «الصافية» الشهيرة.*

---

* يجب الالتفات الى غزارة المعلومات التاريخية عن اليمن في المصادر القديمة التي كتبها العرشي و العبدلي والموزعي وابن داعر والواسعي والعقيلي وغيرهم من المؤرخين العرب... و هناك معلومات تاريخية واسعة عن اليمن عند المحبي والمرادي والغزي والعمري.. وغيرهم.

تعد معركة «الصافية» من اشرس المعارك التاريخية بين اليمنيين والاتراك خلال العهد العثماني لليمن.. خسر العثمانيون فيها إثر مقتل عدد كبير منهم، وإستسلم الباقون لقوات المؤيد اليمنية التي إنفتحت أمامها من خلال سيطرتها على المركز كل الخطوط المؤدية الى بقية المدن اليمنية والمسالك الاستراتيجية، بما فيها زبيد، ثم جزيرة كمران، وجزائر فرساي وقد تّم الرحيل النهائي للعثمانيين من اليمن إلى الاناضول والولايات الاخرى في نهاية عام ١٦٣٥م.

٤/ نظام الحكم العثماني في اليمن :

لا بد أن نتوقّف قليلاً عند أبرز السمات التاريخية التي طبع عليها نظام الحكم العثماني الاول في اليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥م.

١. كانت اليمن تمثل في أثناء خضوعها للسيطرة العثمانية في عهدها الاول، إحدى الايالات الاربع عشرة التي كانت تتألف منها الاراضي العربية التابعة للدولة العثمانية، في حين بلغ مجموع الايالات التي قسمت إليها الدولة اثنتين وثلاثين ايالة.

٢. كانت ايالة اليمن تضم تسعة سناجق (=ألوية) هي : صنعاء/ ومخا/ وزبيد/ وتعز/ وصهلة/ وكوكبان/ وطويلة/ ومأرب / وعدن.

٣. لم يضمن العثمانيون سيطرة حقيقية كاملة على الاراضي اليمنية على غرار ما فعلوا في أقاليم او بلاد عربية اخرى، وذلك لما حفلت به اليمن من إضطرابات مستمرة ، وحركات مقاومة عنيفة، وثورات ساخنة في معظم الجهات.

٤. وعليه، فإن العثمانيين لم يتمكنوا من فرض النظام الاقطاعي على اليمن، إسوة بما فعلوه في أقاليم عربية أخرى – وهكذا، بقيت إقتصاديات اليمن في حالة من الفوضى، وغلبت عليها الاساليب القديمة التابعة للعصور الوسطى.

٥. حرص العثمانيون على حماية الثغور اليمنية من الاعتداءات البرتغالية اولاً، وتأمين المقدّسات الاسلامية في الحجاز من الاعتداءات الاوروبية

ثانياً . وعليه، فقد حافظوا على مدى قرن كامل على السواحل والموانئ وبخاصة: عدن ومضيق باب المندب ، إضافة الى مخا الميناء الحيوي لليمن. وإضطلعوا بدور بارز من خلال أنظمتهم العسكرية في تلك الموانئ الى رد محاولات الانكليز للوصول الى اليمن والتدّخل في شؤونها.

٠٦ كان الحكم العثماني في اليمن قوياً في بدايته، ثم أخذ بالضعف شيئاً فشيئاً ، نتيجة للضعف الذي حاق بالدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر *.

استنتاجات :-

نستنتج من خلال دراستنا لتاريخ اليمن الحديث انه تاريخ ثنائي بين ما حفلت به دواخله وعناصره ورواسبه القديمة من الانظمة والاعراف القديمة، وبين القوى الخارجية التي ارادت الاستحواذ والهيمنة عليه، وهو تاريخ نظام الائمة الزيدية اكثر منه تاريخا عثمانياً ، كما كان عليه الحال بالنسبة لاقاليم عربية اخرى لم تصل فيها درجة الصراع ضد العثمانيين كالذي وصلته اليمن ابداً.

ان الائمة الزيدية اصحاب نظام سياسي / ديني قديم في اليمن، مرجعيته مذهبية -- دينية. وقد حمل الامام الزيدي لنفسه لقب «امير المؤمنين» مثله في ذلك مثل «سلطان المغرب على الرغم من اختلاف المذهبين. وقد ناصب نظام الائمة في اليمن العثمانيين العداء، وحاربوهم، وسعوا الى اخراج قواتهم من بلادهم من اجل الحصول على الاستقلال ، ولكنه نظام ابدى لمرات عدة استعداداته للتعامل مع العثمانيين، وقدم الولاء للسلطان العثماني مراراً، ثم سرعان ما يأخذ بالمناورة لينقض عهده كلما سنحت الفرصة، ويهاجم القوات العثمانية مستخدما الاساليب الميكافيلية (= الغاية تبرر الوسيلة) في اخراج العثمانيين من ارض اليمن ..وقد نجح في تحقيق امانيه وطموحاته.

وعلى الرغم من ذلك فان النظام العثماني حاول استعادة سيادته على اليمن وان تسامح مع الائمة في حكمها و«حاولت كل سلطة مستقرة في مصر ان تمد

---

* انظر د. عبد الحميد البطريق ، من تاريخ اليمن الحديث ،. القاهرة ، ١٩٦٩، ص ٦٨-١١١.

سلطانها الى الحجاز واليمن» كما يقول المؤرخ عبد الكريم غرايبه*. ولقد شكل الامام قاسم المنصور فرعا أساسياً وأخيراً من الائمة الذين حكموا اليمن في التاريخ الحديث، إذ اسسه، ما قبل عام ١٥٩٢م، لكي تستمر سلالته على رأس نظامه التاريخي الذي قضى عليه نهائياً عندما قامت ضده الثورة اليمنية عام ١٩٦٢م، فانهت انغلاق المجتمع اليماني الذي دام قروناً طويلاً، انهت البنية الاسطورية لحكم الأئمة الزيدية!**.

٢- بلاد المغرب الاقصى: البنية التاريخية وخصوصية التكوين السياسي:-

مقدمة: التشكيل التاريخي:

ترسخ في بلاد المغرب الاقصى منذ الازمنة الوسيطة نظام تاريخي عربي، تمثل بـ «الاشراف» أو «شرفا المغرب» الذين قاموا بدور بارز لها في ابقاء التاريخ المغربي / المراكشي واقفاً على رجليه بجميع خلفياته وتكويناته العربية، ومرجعياته الاسلامية - التقليدية. وقد وفّرت جغرافية المغرب الاقصى المتنوعة حالات مساعدة لاستمرار حيوية التاريخ: جبال الريف، وحوض نهر سيبو، والنجود الاطلسية المبسطة، وسلسلة جبال الاطلس العالية الفاصلة بين المغرب الشرقي والمغرب الصحراوي. وكانت الطبيعة الجغرافية والمناخية من ابرز العوامل في التطور الديموغرافي لربوع المغرب بزراعاتها المتنوعة، ومحاصيلها البرية والبحرية، ونتاجاتها الموسمية والتي خلقت في المدن الاساسية تجارات مختلفة***.

---

* د. عبدالكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ص ٥٩.

** لعل اهم ثلاث دراسات عربية ظهرت حتى اليوم عن تاريخ اليمن الحديث هي لـ:

- د. محمد عبدالله ماضي، «دولة اليمن الزيدية: نشأتها، تطورها، علاقاتها» مجلة الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة، مايو ١٩٥٠.
- السيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث: اليمن والامام يحيى ١٩٠٤- ١٩٤٨، ط١، القاهرة ١٩٦٣.
- د. فاروق عثمان اباظة، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨، القاهرة ١٩٧٥.

*** التفاصيل الجغرافية في: ابو عبيد عبدالله البكري، المسالك والممالك (القسم الخاص بالمغرب)، نشره وترجمه: دوسلان، باريس، ١٩٦٥.

يعد المغرب الاقصى هو النقطة الاخيرة من اقصى غربي العالم الاسلامي والعربي معا، وباطلالته على المحيط الاطلسي، فقد عدّ من التخوم التاريخية التي وظفت نفسها بنفسها في المجالات السياسية والاقتصادية على مدى العصور الطويلة، وهو أول اقليم استراتيجي ينفصل عن جسم الخلافة العباسية ببغداد على عهد الخليفة هارون الرشيد ابان عصر العرب الذهبي. ليؤسس له دولة الادارسه ٧٨٩-٩٢٦م في محيطه الاجتماعي المتفاعل المقابل للاندلس على الجانب الاوربي. ثم تأسست فيه ثاني دولة مستقلة على يد المرابطين ١٠٥٦-١١٤٧م الذين وحدّوا المغرب، ثم ظهرت دولة الموحدين ١١٣٠- ١٢٦٩م، وكان كل من المرابطين والموحدين قد امتدوا بدولتهم في اعماق اسبانيا ..ثم تأسست دولة المرينيين ١١٩٦-١٤٢٨م التي وحدت المغرب العربي واكسبته خصوصية اجتماعية مشتركة متفاعلة بين اقاليمه وهي الدولة التي أعطت- كذلك - المغرب الاقصى الشكل التاريخي الذي استقر عليه اجتماعيا وانثربولوجيا، باعتباره «امة» لها نظمها واعرافها وخصوصيتها وسماتها المتميزة. وجاء الوطاسيون إلى حكم المغرب بدولتهم ١٤٢٨-١٥٤٩م، التي ضعفت قليلًا ونال منها الاعداء، إذ احتل كل من الاسبان والبرتغال خلال عهدهم عدة من الثغور والموانئ المغربية*.

١. السعديون:

هكذا بدأت احدى الأسر الشريفة تدعو إلى استرجاع الاراضي المغربية التي اغتصبها الاعداء. وتمت مبايعة عميد الاسرة محمد القائم بأمر الله في سنة ١٥١١م، الذي يعد المؤسس الحقيقي للنظام الشرافي في التاريخ الحديث للمغرب الاقصى عند فجر القرن السادس عشر الذي جرت ابان تلك السنوات الاولى منه، تحولات خطيرة في تاريخ البشرية.

لقد حكمت الاسرة السعدية للفترة ١٥١١-١٦٥٩م، إذ استطاع السلطان احمد الاعرج الذي خلف محمد القائم، ان يجلي البرتغاليين عن اغادير والشواطئ

---

* C.E. Bosworth, The Islamic Dynasties, Edinburgh Univ Press, 1980,pp.28-34.

الجنوبية، وتحسنت الأوضاع الاقتصادية للبلاد. وكان السعديون قد ساورهم الخوف من الامتدادات العثمانية ، حتى يقال بأن بعض سلاطينهم تعاون مع الاسبان والبرتغاليين ضد خطر داهم كانوا يتصورونه! وكانوا ايضاً قد استفادوا كثيراً من هجرة الاندلسيين الموارسكة الذين عمروا البلاد، وانعشوا الاقتصاد واوضاع السوق، وطوروا الصناعات الحرفية.

كان من ابرز الملوك السعديين مولاي عبد الملك الذي انتصر على البرتغاليين سنة ١٥٧٨م في معركة وادي المخازن. وقد حدثت بعض النزاعات الاسرية عند السعديين، في حين كان البرتغاليون يتسللون نحو الغرب، وكانت الثغور المغربية قد غدت قاعدة للقراصنة على مدى قرنين كاملين، اي منذ القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر.. وكانت اهميتها الاستراتيجية تزداد يوماً بعد آخر ، وتسترعي مكانتها أطماع اوروبا الاقتصادية *.

انتهت الاطماع البرتغالية على السواحل والثغور المغربية سنة ١٥٧٨م. في حين كان قيام الدولة السعدية بمثابة رد فعل قوي تجاه الامتداد البرتغالي، كانت هناك محاولات من اطراف الدولة العثمانية للاستحواذ فعلاً على المغرب، لكنها لم تتمكن من تنفيذ خططها أو تحقيق مطامحها. وقد فشلت محاولاتها أمام التأسيس القوي للدولة السعديةالتي كانت قوتها متجسدة بعاملين اساسين هما:

١- انها كانت تمتلك جيشاً قوياً مجهزاً بأحدث الأسلحة، كما وكانت له تجاربه الميدانية التي خاضها ضد البرتغاليين والاسبان.

٢- كان بيت المال السعدي مزدهراً، واقتصاد الدولة متكاملاً بفعل الموارد الداخلية الكبيرة، والمصادر الخارجية التي كان ابرزها تجارة السكر وحركة القرصنة الفعالتين.

حكم من السعديين في اجزاء واسعة من المغرب الاقصى ثلاثة عشر سلطاناً على امتداد حكمهم الطويل ١٥١١- ١٦٥٩م. وكانت دولتهم مستقلة تمام

---

* من ابرز المصادر التاريخية المعتمدة : ابو فارس عبد العزيز القشتالي، مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا، تحقيق : عبد الله كنون (المركز الجامعي للبحث العلمي) الرباط ، ١٩٦٤.

الاستقلال عن نفوذ أو سيادة أية دولة اجنبية، كما أنها كانت مستقلة دينياً، إذ لا تعترف بخليفة آخر، فقد كان سلطانها يحمل لقب «امير المؤمنين». وعلى هذا الاساس بقي الجفاء السياسي فعالاً بين السلاطين العثمانيين وبخاصة ضد عمالهم في ايالة الجزائر المتاخمة.

وقد وجه السلطان المغربي احمد المنصور قواته لفتح السودان الغربي بغرض الحصول على الذهب اللازم لتحرير الاندلس الذي افتقد آخر ممالكه العربية: دولة بني الاحمر في غرناطة عام ١٤٩٢م، ولكن احمد المنصور انفق أمواله في الدعوة لخلافته الاسلامية وامارته العربية في المشرق العربي ضد السلطنة التركية- العثمانية.

دخل الحكم السعدي ازمته السياسية بوفاة احمد المنصور عام ١٦٠٣م، على الرغم من استمرار النظام السعدي بعد وفاته حتى منتصف القرن السابع عشر، أي للفترة ١٦٠٣- ١٦٥٩م، فقد انقسم المغرب بعد وفاة احمد المنصور الى امارات تلاشى منها الحكم المركزي، واتسمت الاوضاع في المغرب الاقصى بخصوص كل دولة والمجتمع على النحو الآتي:

١- النزاع بين الطامعين على عرش الدولة. وهم ابناء السلطان احمد المنصور، فقد استقر زيدان الناصر ١٦٠٣- ١٦٢٨م في حكم فاس، واستعان بالاتراك ضد اخيه عبد الله الواثق ١٦٠٣-١٦٠٨م في حكم مراكش. اما محمد الشيخ مأمون ١٦٠٣- ١٦٠٨م، فقد اعلن نفسه اميراً على مكناس. وقد دام هذا النزاع سبع سنوات انتهى بوفاة الواثق، وإبعاد زيدان الناصر وانفرد المأمون بالحكم الذي استعان بالاسبان مقابل مكافأتهم بتنازله عن مدينة العرائش وقلعة المعمورة.

٢- نفوذ الطرقية الدينية، وانتشار الزوايا كظاهرة شجعها الاضطراب السياسي وحالة النزاع الداخلي وعدم الاستقرار السياسي، وتواطؤ الاجانب على الساحل المغربي. وقد اوجدت الزوايا المنتشرة حركة دينية شمالاً وجنوباً تدعو الى الجهاد ضد المسيحيين الغزاة وضد اعوانهم. ففي جنوبي المغرب الاقصى نما كثيراً نفوذ الزاوية الجازولية. وكانت مركزاً

فعالاً في التنظيم العسكري، اما في الشمال فقد ظهرت زاوية اخرى تدعى زاوية الدلاء التي استطاعت ان تمتد بنفوذها الديني والسياسي نحو الشمال والاجزاء الوسطى من البلاد. وقد نجحت هذه الزاوية في تحشيد قبائل عربية وبربرية ضد التفكك الذي عاشه السعديون*.

٣- سلطة المدن التجارية المستقلة: هاجرت في مطلع القرن السابع عشر الوفود الأخيرة من الموريسكيين الاندلسيين الذين استقر قسم منهم في المغرب وخاصة في تطوان وقد اهتم النازحون بالتجارة البحرية، فانتعشت القرصنة، وانفصلت مدينة الرباط عن النظام السياسي- السعدي سنة ١٦٦٧، وكونّت «جمهورية» تدعى دولة ابي رقراق، ولم يدم نفوذ القراصنة وقتاً طويلاً، اذ استطاعت قوى الزوايا ان تقضي على القراصنة، وتسترجع منهم مدينة الرباط وقلعة المعمورة عام ١٦١٤م.

٤- امارات الجنوب. ظهرت في اجزاء من المغرب الاقصى بعض الامارات الاقطاعية، خضع بعضها لنفوذ «الشرفاء»، ولا سيما في جنوبي البلاد، وكانت احداها امارة علوية في مقاطعة تافيلات، وتأمن نفوذهم السياسي في أواخر العهد السعدي. وفي خضم تلك الفوضى، كانت الدول الاوربية تسعى إلى توسيع نفوذها على السواحل المغربية، وكثرت الاطماع الغربية، إذ استعاد الاسبان العرائش وقلعة المعمورة وسبته، واستعاد البرتغاليون طنجة، وبدأ الانكليز يؤسسون شركات تجارية متعددة الملكيات والتدخل السافر في الشؤون الداخلية.

ماذا نستنتج اذاً؟

نستنتج أن السعديين الذين اعتمدوا في استمرار حياتهم السياسية للمغرب على مساعدات صنهاجة الكونفدرالية، وعلى الاقتصاديات المتنوعة، وعلى المسالك الاستراتيجية التي تربط سجلماسه بالمرافئ البحرية لاغراض التجارة الدولية بين

---

* انظر د. محمد حجي، الحياة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، (دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر) جـ١، ١٩٧٧، جـ٢، ١٩٧٨. (التفاصيل في الجزء الثاني، ص ١١١- ١٦٣).

اوروبا وافريقيا الاستوائية والسودان الغربي* . ان السعديين ابتدأوا بسياسة تعمل ضمن النطاق الديني بصورة كبيرة وعملية، وقد اختص التيار السياسي بالحيوية من مركز المغرب وبضمنه فاس ومكناس وساله وذلك لعظمة عملياتهم المستندة اساسا الى المرجعية الاسلامية المرنة والقابلة لاستيعاب تطورات المجتمع وحركته التاريخية، وهذه هي خصوصية المجتمع المغاربي الكبير حتى يومنا هذا.

ان السعديين قد انتهوا الى غير ما كانوا قد بدأوا به، فأثرت مجريات الاحداث السياسية على المجتمع وتراكيبه المختلفة والتي احتفظت باعراف وطنية وتقاليد عربية نقية لكن؟

خلال السنوات الاخيرة من الحكم السعدي للمغرب الذي انكمش على نفسه في مقاطعة مراكش، بدأ ظهور قوة سياسية جديدة وفعالة في منطقة الصحراء ومركزها «تافيلات»، وتمثلت تلك القوة بالاسرة العلوية الشريفة.

٢- العلويون: تواصل حكم السلطنة الشريفية:-

التكوين السياسي:

لقد جاء تأسيس حكم السلالة العلوية للمغرب الاقصى مترافقاً مع بدايات القرن السابع عشر، وعلى انقاض الدولة السعدية ١٥١١- ١٦٣٦م التي جاء انهيارها- كما عرفنا- في مدار جغرافي- سياسي يؤلفه قلب جبال الاطلس، ويتمركز منكمشاً على نفسه في مراكش.

ظهر الاشراف العلويون في الاقليم الشرقي من المغرب الاقصى، وينسبهم المؤرخون الى الحسن بن علي بن ابي طالب، وقد هاجروا من ينبع في الحجاز خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واستوطنوا ربوع المغرب لاحقاب طويلة، فقد استقروا بتافيلات وزاولوا الزراعية (= زراعة النخيل)، وبدأ مركزهم الديني يتبلور بقوة في المجتمع المغربي، ومن خلاله بدأ دورهم السياسي يتلاحق في تطوره أثر تسنمهم القوة السياسية في البلد.

---

* للاستزادة. انظر. عمر بن خروف، «ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين» مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد(٣)، السنة ١٩٨٧.

لقد بويع مولاي الشريف محمد الاول سنة ١٦٣١م اماما في مدينة سجلماسة، وقد مثل اول بادرة علوية في الحقل السياسي المغربي. ثم تطورت قوتهم وحركتهم السياسية عندما وصل احد ابنائه وهو مولاي محمد الثاني الى السلطة بعد تحقيقه البيعة كسلطان في سجلماسة سنة ١٦٣٥م. وكان لأخيه مولاي رشيد دور سياسي متفاقم في الاحداث الداخلية والخارجية، وذلك عقب وفاة والدهم المؤسس الاول مولاي محمد الاول*.

ففي خلال الفترة ١٦٥٩– ١٦٧٢م ينتزع مولاي رشيد الحكم من اخيه المولاي محمد بن محمد الشريف، ثم يبسط نفوذه نحو الشرق المغربي والشمال، ويستولي على مدينة فاس سنة ١٦٦٦م بمساعدة اعيانها. ويعد المولاي رشيد هو المؤسس الحقيقي للدولة العلوية، وقبل وفاته سنة ١٦٧٢م، استطاع ان يمد نفوذه على اجزاء كبرى من المغرب الاقصى، فقد اخضع اقليم تازا وامتد مشرقاً ومغرباً، وقضى على نفوذ الامارات المحلية الانفصالية، كما قضى على القراصنة، كما انهى نفوذ الزوايا وتدخلاتها في الشؤون السياسية، وقمع حركات التمرد.. ومن خلال الحملات العسكرية الجادة، كان المولاي رشيد قادراً لكي يبني ممراً بحرياً في البحر المتوسط لاغراض التجارة مع اوروبا، فوصل تيار ذلك الممر المهم الى عدد من المناطق الاستراتيجية.

هكذا جاءت البداية التاريخية ناجحة وموفقة في المراكز والاطراف من المغرب الاقصى، والتي اعتبرت باباً واسعاً واستطاع ان يدخل منه مولاي اسماعيل وهو السلطان الذي اعقب اخاه في الحكم، ليجد في المحصلة دولة مغربية قوية واحدة تضم الجبل والريف والصحراء والسواحل، وكانت لها القدرة على الحياة والاستمرار في ظل حكم السلالة العلوية.

حكم مولاي اسماعيل للفترة ١٦٧٢– ١٧٢٧م، اي انه حكم حكماً طويلاً يقدر بـ ٥٥ سنة، واستتبت الامور استتباباً تاماً، وقد ثبت السلطان مولاي اسماعيل السلطة العلوية في المغرب الاقصى وعلى كامل ترابه الاقليمي، مستمراً في عملية

---

* من الاهمية مراجعة ما كتبه كل من المؤرخين المغاربة: عبد الوهاب بن منصور وعبد الله العروي وابراهيم حركات ومحمد حجي ومحمد بن عبود وعبد الهادي التازي... وغيرهم.

توحيد البلاد، بإرساله الحملات العسكرية لاخضاع المناطق الجبلية، وقد قضى على الانتفاضات القبلية في منطقة الريف والشرق المغربي، وعلى محاولات بعث نفوذ القرصنة في طنجة، ومراقبة تحركات القبائل. اعتمد الاقتصاد المغربي على عدة من الموانئ. اما جيشه، فقد توزع في عدد من القلاع لمراقبة المسالك التجارية والمواصلات وحفظها من غارات القبائل المتمردة.. وقد فرض ضرائب على السكان والقبائل للحفاظ على الامن والاستقرار، وتطور الجهاز الحربي المغربي في عهده كثيرا، وكان للجيش دوره الفعال خاصة وهو جيش الرقيق السود (= العبيد). كما اهتم المولاي اسماعيل ببناء القلاع او السيطرة على قلاع اخرى بغية مراقبة طرق التجارة والمواصلات من غارات القبائل انطلاقاً من اقليم وجده- تازه- تافيلات - سوس - صوب الجنوب. وقد اعتمد المولاي اسماعيل على العبيد في بناء جيشه القوي في حين كان الجيش المغربي يتألف في السابق منذ عهد المرابطين من القبائل المخزنية الموالية للسلطة، الا ان المولاي اسماعيل كان يخشى النزعة الانفصالية المخزنية *

وبعد وفاة السلطان اسماعيل عام ١٧٢٧م، تعاقب على الحكم كثير من السلاطين خلال القرن الثامن عشر، وتطور خلاله نظام الحكم لدى الاسرة العلوية في المغرب الاقصى التي لم تزل تحكمه حتى يومنا هذا. ويعد القرن السابع عشر بالنسبة لموضوعنا المشار اليه آنفاً هو تاريخ التكوين السياسي للمغرب الحديث، في حين سيشهد المغرب خلال القرن الثامن عشر تطورات واسعة، ورقياً مشهوداً في الثقافة والآداب والعلوم العربية.

خصوصية المجتمع المغربي:

امتلك المغرب عواصم داخلية مهمة كفاس ومراكش ومكناس ارتبطت بها بقية الاقاليم وعلى مختلف الجهات.. وخلال العهدين السعدي والعلوي (= القرنان ١٧/١٨) اجتاحت المغرب الاوبئة والمجاعات والفيضانات والعواصف وانقطاع الامطار التي كثيراً ما كانت تؤثر في المحاصيل الزراعية نتيجة الجدب الذي يعقب ذلك... الخ.

* For details; See, Henri Terrasse, Histoire du Maroc des Origines a l etablissement du protectorat francais, Vol. I, Casablanca, 1971.

وقد تفاوتت طرق استخدام الدولة- طبقاً للظروف- لمسائل متعددة كالضرائب والعشور والمكوس والوكالات والمخازن والمقاصير.. الخ وكانت ابرز وسيلة لارتباط المغرب الاقص بالمشرق العربي تتمثل بقوافل الحج المغربية عبر القاهرة ومدن المغرب العربي. اما التجار المغاربة فهم الذين كانوا يسيطرون على اوضاع السوق الاقتصادية سواء في الدواخل ام الخارج. وكان الاقتصاد هو الذي تحصن به المجتمع المغربي.

بدأ المجتمع المغربي خلال الازمنة الحديثة بقالب تكاثري- عددي، وكان يتالف من شبه مجموعات مستقلة اجتماعياً وسياسياً، وتشتمل على. القبائل وزراع الريف والجماعات المتمدنة والشرفاء والعبيد، واليهود.. الخ وكان للمجتمع المغربي مظاهر من التعقيدات على المدى الأفقي والمدى العمودي. وتبدو تلك المظاهر واضحة اشد الوضوح من خلال المدى العمودي، وذلك في اوساط تنظيمات الجماعات الدنيا التي تميزها صفات اجتماعية خاصة، وتحتويها اعمال اقتصادية مشتركة ومتنوعة.

اما الصورة العامة لحركة المجتمع المغربي، فقد كان على غرار اي مجتمع له تركيبه وتطوره، إذ كان يحتوي على مرافق عدة تشمل: التربية من خلال المدارس ودور العلم ثم الصحة ورواقاتها، ثم القوة العسكرية وثكناتها، ثم الادارة وابنيتها. اما حركة السوق، فكانت تتماشى مع التيار الاقتصادي الذي يتصف باللامركزية. وكان لكل جامعة في المجتمع تركيبتها الفئوية الاجتماعية الداخلية الخاصة. و تحتل الصفوة، المركز الاول والمتقدم في المجتمع، وكانت تقف على رأسه.. ولكل جماعة صفوتها في المجتمع من الاداريين وعلماء الدين.

ان الاهداف التي كان يبتغيها المجتمع المغربي بدت مترسخة في ضمائر الافراد والجماعات المستقرة وكانت تلك الاهداف تنمو في قلب الايديولوجية الاسلامية التي كان فعلها مؤثراً في الافكار والاعمال، فضلاً عما كانت تخلقه من ضروريات في الحياة اليومية لذلك المجتمع الذي كان في أمس الحاجة لها *.

---

* انظر د. سيّار الجميل «تحليل كتاب نشر المثاني لؤلفه محمد القادري تحقيق نورمان سيكنار». المجلة التاريخية المغربية، السنة (١١)، العدد ٣٥-٣٦، ديسمبر ١٩٨٤.

لقد وجد سلاطين المغرب لأنفسهم العذر في العمل سياسياً وإدارياً من خلال الصفوة لكل جماعة في المجتمع المغربي، وذلك في غياب وفقدان البيروقراطية الواضحة والكاملة «للموديلات» أو النماذج العثمانية والمملوكية والمغولية والتركمانية والجركسية هذا الى جانب انعدام الطابع الاجنبي الشرقي في نظام الحكم، كما كانت عليه الاوضاع والاحوال التي انطوت عليها المجتمعات العربية الاخرى، وخاصة في البيئات المنتشرة في المشرق العربي، مثل: الطابع المملوكي والتركماني والمغولي والايراني والعثماني.. ثم التركي والالباني والجركسي والجورجي.. تلك المجتمعات التي إصطبغت في أغلبها بآثار حكم الاجانب المشارقة لها، وتركت عليها بصماتها، بل ووّرثتها جملة من عاداتها وتقاليدها، بل سوالبها وخطاياها.

هذه هي السمات التي ميزت المجتمع المغربي.. اما السلاطين المغاربة، فكانوا يعملون على إحراز المكتسبات في فرصهم الممكنة، إضافة الى التطبيقات الاقتصادية، وهي التي ربطت المجتمع بعجلة إحتياجات الدولة سواء في رفع الضرائب أم تجهيز الحملات العسكرية. أما قوّة العبيد العسكرية التي أسّسها المولاي إسماعيل فبقيت غير مندمجة مع المجتمع المغربي، مستقلة في مهامها، ومنعزلة في حياتها وتقاليدها، ثم تلاشت، وفقدت حجمها في نهاية القرن الثامن عشر.

ويتوضح من خلال دراسة كتاب «نشر المثاني» (لمؤلفه المؤرخ محمد القادري)*، إن المجتمع المغربي قد تميز بعروبته، وحملت المدن المغربية الثقافة العربية ونافحت عنها، وطوّرت بعض جوانبها.. كما كان للاسرة العلوية التي حكمت المغرب الاقصى من خلال مولاي رشيد ومولاي اسماعيل ومولاي عبد الله.. والدور المهم والكبير في الحفاظ على عروبة المغرب ضدّ التيارات الاجنبية من طرف، والتيارات المتطرفة والمتعصّبة الداخلية من طرف آخر.. ناهيك عن ان المجتمع المغربي كان مفتوحاً في ابوابه لاستقبال القوافل والوفود والوافدين إليه

---

* محمد القادري، نشر المثاني بأهل القرنين الحادي عشر والثاني، تحقيق نورمان سيكار (من منشورات المجمع العلمي البريطاني)، لندن ١٩٨١، ص ١٧٠- ١٧٥ (النص العربي).

من اصقاع المشرق العربي وشمالي افريقيا، فكان هناك العراقيون والحجازيون والمصريون والتوانسة وغيرهم من الذين استوطنوه من أمة العرب الكبرى في ازمان مختلفة.

ومن الجدير بالذكر أن المغرب الاقصى كان الدولة العربية الوحيدة في شمال افريقيا التي لم يحكمها الاتراك العثمانيون.. وكان يواجه على حدوده الشرقية مصادمات مسلّحة يذكيها العثمانيون لفصائل المقاومة ضد العلويين من ايالة الجزائر، وهذا ما جرى سنة ١٦٧٢– ١٦٧٣م، فضلاً عن الاحتكاك على التخوم من قبل القبائل في الحدود.. وكذلك العلاقات التجارية للجزائر مع سبته التي كانت مركزاً تجارياً في اقصى البحر المتوسط.

٣- اقليم الحجاز وأشراف مكة:-

مقدمة:

يعد الحجاز، منطقة قديمة وعريقة غربي الجزيرة العربية. مكتسبة عراقتها بوجود الكعبة المقدّسة، ومقام النبي ابراهيم، وانبعاث الرسالة الاسلامية في مكة وهي مدينة تحتضنها الجبال عند واد غير ذي زرع، وهي العاصمة الاسلامية الدينية التي إرتبطت بها جذور الاسلام. ويقسم الحجاز الى مناطق ثلاث أو أربع على نحو عمودي يمتد فيها خط الحجيج الاستراتيجي الذي ينسرب منه ركبان شهيران، أولهما هو محمل الركب الشامي، وثانيهما هو محمل الركب المصري. فضلاً عن درب «النحلة الشامية» الذي يسلكه حجيج العراق وبلاد الشرق.

كانت مكة المكرمة هي العاصمة التاريخية العريقة لقريش وجذورها واصلابها وهي قبيلة عربية قديمة بقيت متحصنة بمكة وشعابها أجيالاً طويلة، وقلما حظيت مدينة مقدسة في التاريخ بمثل تجربة هذا الاستيطان السلالي العجيب. إذ بدأت منها حياة «الشرفاء» الذين سكنوا فيها طويلاً، متخذين إمتيازاتهم وقداستهم منها هوية إنتمائهم الهاشمي، وغدا منصب «الشريف الاكبر» يكتسب في الوقت نفسه لقب «امير مكة». لقد حقق الاشراف مكانة وامتيازات كبيرة في المجتمع العربي– المحلي والاسلامي باعتبارهم اعضاء فروع العتر